ملامح التعليم بالمدينة في العصر العثماني

عائض بن محمد الزهراني*

تأريخ التقديم:٢٠١٢/٧/٢٩ تأريخ القبول:٢٠١٢/١١/٧

تمهيد :

يحتل العلم الميدان الأرحب في تكوين حضارات الشعوب، ورقي فكرها، ولا شك أنه كان السلاح الأمضى في المدينة المنورة حتى نكاد نجزم أن مساهمة المدينة الإسلامية في الحضارة العربية الإسلامية لم تقف عند النواحي الشرعية فقط بل تعدى ذلك إلى شتى العلوم والمعارف الأخرى.

والحياة العلمية في المدينة في الدولة العثمانية حياة حافلة بالصفحات المضيئة والمشرقة بالإنجازات التي تثير في نفس المسلم الشعور بالزهو والفخار لما سطره الأجداد بأحرف من نور في سفر التاريخ العالمي.

ان المؤلفات التي صدرت في القرن العاشر الهجري بلغت عشرات الآلاف وحسبنا دليلاً أن بعض العلماء عرف عنهم انهم ألفوا مئات الكتب كالسخاوي٩٠٢هـ/١٤٩٦م[١] والإمام السيوطي٩١١هـ/١٥٠٦م[٢]ويقاربهم كثير من العلماء الأجلاء في عدد المؤلفات.

والحقيقة أن الازدهار العلمي والفكري الذي شهدته المدينة في عهد الدولة العثمانية لم يولد من فراغ فهو ثمرة لبذرة غرست قبل هذا العهد. إذ المعلوم أن الحياة الفكرية ما هي إلا سلسلة متعددة الحلقات وكل حلقة تعتمد على الحلقة التي أتت قبلها وتؤسس للتي تليها.

---

* أستاذ التاريخ المشارك ووكيل كلية خدمة المجتمع والتعليم المستمر بجامعة الطائف .

(١) السخاوي- الحافظ بن عبدالله سمش الدين محمد بن عبدالرحمن اشتهر بمؤلفاته العديدة والمتنوعة في التاريخ والتراجم أنظر ترجمته بتوسع في مؤلفه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع –ج٩ – مكتبة القدس – القاهرة – ١٣٥٣هـ- ص١٦٧.

(٢) السيوطي – جلال الدين بن عبدالرحمن بن الكمال من أسرة اشتهرت بالعلم والدين واشتهر بالرحلات والتأليف حتى أصبح رائد عصره في التعليم أنظر ترجمته في كتابه: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة – تحقيق محمد إبراهيم – القاهرة – ١٣٨٧م- ص٨٧.

بذلك شهدت المدينة المنورة في العهد العثماني تقدماً علمياً شمل جميع ميادين العلوم وظهر ذلك واضحاً في تلك الأعداد من العلماء والفقهاء الذين حفل بهم هذا العصر والذين أسهموا بمؤلفاتهم ودراساتهم في إثراء الحياة العلمية في المدينة المنورة، بل وفي العالم الإسلامي كله[١].

عوامل ازدهار الحركة العلمية في المدينة:

كانت هناك عوامل رئيسة ساعدت على الازدهار العلمي والنشاط الفكري وأضفت لبنات في بناء الصرح الحضاري للمدينة المنورة.

أولاً: اهتمام أمراء المدينة بالحركة العلمية:

إن الباحث في التاريخ الحضاري لإمرة المدينة المنورة يجد أن جهود هذه الإمرة قد أسهمت إلى حد كبير في ذلك التقدم العلمي الذي شهدته فترة حكم الأشراف والواقع ان اهتمام أمراء الحجاز بالناحية العلمية لم ينحصر في مكة المكرمة التي كانوا يقيمون فيها بل امتد ذلك إلى المدينة المنورة التي كانت خاضعة لنفوذهم ويظهر ذلك من أعداد العلماء الذين حفلت بهم كتب التراجم، كما أن غزارة الإنتاج العلمي المتمثل في كثرة المؤلفات في جميع فروع المعرفة شاهدة على مبلغ هذا التقدم[٢].

وقد كان لبعض أمراء المدينة أثّر في ازدهار الحركة العلمية، ولكن هذا الدور لم يكن بصورة كبيرة، ويعود ذلك إلى عدم الاستقرار السياسي في الحكم، وإنشغالهم بالحروب والفتن التي وقعت بينهم[٣].

إذ أنه خلال هذه الفترة لم نلاحظ إلا القليل منهم، ممن كان له إهتمامات علمية، بل أن منهم من كان له مواقف أثرت على العلم والتعليم والعلماء بشكل سلبي، في الوقت الذي كان

---

(١) المطيري – نبيلة بنت مسعود/الحياة العلمية في مكة المكرمة ١٢٢٨– ١٢٥٦– رسالة ماجستير جامعة الملك سعود.

(٢) الجهني – عويضه– سلطة اشراف مكة في المدينة المنورة خلال القرن العاشر –مجلة الجمعية التاريخية السعودية– ع ١٦– ١٤٢٨هـ – ص ٧٠.

(٣) ابن فهد – جار الله محمد– نيل المنى– تحقيق محمد الهيلة – مؤسسة الفرقان – ٢٠٠٠م –ج١ –ص٧٩.

يجب عليهم دفع حركة التعليم، لاسيما وأنهم يحكمون منطقة كان يجب أن يكون لها الدور الأساسي في توجيه الحركة الفكرية.

ولكن على الرغم من ذلك، فمصادر التاريخ المدني تذكر لنا البعض منهم، ممن كان لديه توجه علمي ملحوظ، ورغبة في العلم. فقد كانت مجالسهم في القرن العاشر الهجري ندوات تحفل بكبار العلماء كما تتجلى في كثير من الأمراء روح البحث العلمي، وكان بعض منهم يتمتع بالذكاء والحرص على مجالسة العلماء طلباً للعلم لشغفهم به كالشريف محمد بن بركات بن محمد بن بركات أمير الحجاز حتى عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م[١] حيث فوضه السلطان العثماني أمر مكة وجدة والمدينة وينبع وخيبر ثم فوض الأمر لأبنه حسن وعكف على العبادة واجتباء العلوم وكان جامعاً لأشتات الفضائل محباً للعلماء وله شعر رائق ونثر فائق[٢].

كما اشتهر حاكم الحجاز سعود بن الحسن بن محمد بن بركات الحسني[٣] بعشقه للعلماء والأدباء ويصفه المحبي بقوله: "واتسم بالبشر والخلق والرضي وامتدح بالقصائد المستعذبه وقصد بالتأليف المستعذبة لميله إلى أهل الفضائل وشغفه بالمذاكرة في الأدب ، وكانت بينه وبين الإمام عبد القادر الطبري ألفة شديدة ومحبة أكيدة حتى أنه الف شرح الطبري على العروض والقوافي خدمة له وما زال في ملازمته مدة من الزمن وكانت وفاته سنة ١٠٠٣هـ[٤] .

---

(١) محمد بن بركات بن محمد بركات الحسني ابوغي ولد عام ٩١١هـ شارك والده في الحكم ثم انفرد بالسلطة واستمر في الحكم مدة طويلة تجاوز الثمانين من عمره أنظر ترجمته في : النهروالي – قطب الدين – الاعلام بأعلام بيت الله الحرام – دار خياط – بيروت– ١٩٦٤م– ص١٦٧ – (٩٠٢هـ) (١٤٩٧م).

(٢) العيدروسي– محي الدين عبدالقادر – النورالسافر عن اخبار القرن العاشر – تصحيح محمد أفندي – مطبعة الفرات– بغداد– ١٠٦١– ص ٣٤٠ / جارشلي اسماعيل حقي – امراء مكة في العهد العثماني – ترجمة خليل مراج– الدار العربية للموسوعات – ط١– ٢٠٠٣م – ص٥١– ٦٢ / الزركلي – خير الدين – الاعلام ج٦ – ط ١٥ – دار العلم – بيروت – ٢٠٠٢م – ص٥٢/عبدالغني عارف– أمراء المدينة المنورة – دار الكتاب – دمشق – ١٩٩٦م – ص٣٣٠.

(٣) سعود بن الحسن بن محمد بن بركات الحسني ابوغي كان ذو رأي سديد وإدارياً محنكاً ومحاربا جسوراً أنظر ترجمته في: جارشلي– أمراء مكة –ص١٠٦.

(٤) المحبي – محمد أمين – خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر – م١ – دار صادر – بيروت– ١٩٩٠م– ص١٨٧.

ومن أشهر تلك المجالس مجالس الشريف مانع بن زبيري بن قيس بن جماز ، الذي كان يتميز بكفاءة علمية فائقة. وكان له دور رائد في تنشيط الحركة العلمية بالمدينة ويصفه العصامي " كان من أجل الأمراء قدراً ، وأرفعهم ذكراُ ، حيث كان من أمراء المدينة السابقين"(١).

ولقد كان من أشرفوا على حكم المدينة مفوضين من السلطة العثمانية الغير العرب الذين اشتهروا بإنتمائهم إلى العلم والعلماء وأشار إلى بعضهم مؤرخي المدينة مبيناً أثاره العلمية وإنشائه مكتبات (دولار أغا) وهو الذي حكم المدينة في حوالي ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م إلى ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م فيصفه صاحب كتاب تحفة المحبين"كان عالماً فاضلاً رايت له (مجموع) عليه بخطه وضبطه واوقف جميع كتبه على طلبة العلم بالمدينة المنورة وجعل النظر عليها لمحمد أفندي الشرواني"(٢) لذلك نؤكد أن هذا الاهتمام ترك أثرا كبيرا في مواقفهم من النشاط العلمي في المدينة، فقد حصل لطلاب العلم له ما لم يحصل لأحد من المجتمعات الإسلامية الأخرى من الاهتمام (٣). مما جعل المدينة في ولايتهم مقصودة من كل الآفاق وذلك للحج، أو المجاورة، والأخذ من علماء الحرم الشريف، فحيثما يتوفر الجو العلمي الجيد والاستقرار والأمن وتشجيع العلماء، والأخذ بأيديهم تجد توافد العلماء واهتمامهم جلياً، وهذا ما

(١) مانع بن زبير بن جماز بن شيحة الحسني امير المدينة اشتهر بحبه للعلماء والأدب وحسن السيرة للمزيد أنظر: العصامي- عبدالملك بن حسين- سمط النجوم العوالي في انباء الاوال والتوالي-ج ٤ – المطبعة السلفية – القاهرة- ص١٥٢/ المحبي- محمد-خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر- ص٩٨ .

(٢)العصامي- سمط النجوم العوالي-ج٤-ص٣٦٥/ الأنصاري – عبدالرحمن – تحفة المحبين – تحقيق محمد العروسي – المكتبة العتيقة – تونس – ١٣٩٠- ص١٨٧/ عارف عبدالغني – أمراء المدينة المنورة – ص٣٢٨/ دحلان- احمد زينى – خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام – المكتبة الأزهرية – القاهرة –ص٤٩.

(٣) المديرس – عبدالرحمن – المدينة المنورة في العصر المملوكي – مركز الملك فيصل – الرياض ١٤٢٢هـ ص٢٨ – ٣٠ – ٣١ .

(٤) وللمزيد ننظر على سبيل المثال: السخاوي- ج١٢/ جار الله بن فهد – نيل المنى / العيدروسي – النور السافر / المشاري – منى حسن – المجاورون في مكة والمدينة خلال القرن العاشر- جامعة الملك سعود الرياض- ١٤٠٩هـ.

حدث فعلاً في أيامهم، فقد زادت نسبة المجاورين في عهدهم عن العهود السابقة، ويتضح ذلك من خلال كتب التراجم التي تحدثت عن المجاورين في القرن العاشر الهجري[١].

ثانياً: اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بالحركة العلمية:

تقاس حضارة الأمم والدول بما لها من علم وثقافة وبما أنتجت من فكر وبما ابدعت من فن وبما قدمت من مساهمات في ميادين العلم والمعرفة والدين.

لذلك حظي العلم والتعليم في المدينة المنورة باهتمام كبير من الدولة العثمانية التي اعتلت سلطة العالم الإسلامي بعدما أسقطت الدولة المملوكية[٢] ولم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا أقل منهم شأناً في نشر الحركة العلمية والدراسات الإسلامية في عصرهم، فالمدارس التي ورثوها عن المماليك عملوا على ازدهارها وتطويرها والعناية الفائقة بها.

وقد بذل السلاطين العثمانيين ادواراً مهمة في نهضة العلم والمعرفة وكانت لهم إرادة قوية ورغبة ملحة وجهود متواصلة امتازوا بها في ميدان الحركة العلمية[٣].

كما حظيت المدينة المنورة باهتمام خاص منهم لما لها من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، فأنشئوا المدارس المتعددة فيها وتعيين هيئتها العلمية وموظفيها ووقف الأوقاف الغنية عليها من أجل نشر العلم والثقافة واستمرار دورها كمركز إشعاع ومعرفة لكي تكون ملتقى لطلبة العلم من أهل المدينة وأطراف الحجاز، ومن يفد اليها من العلماء والطلاب من خارجه كما أجزلوا العطاء لأهل المدينة المنورة والمدرسين والقضاة[٤]وزاد هذا الاهتمام في عهد السلطان سليم الأول حيث ضاعف الصدقة التي كان يرسلها والده ولقد وصلت السفن العثمانية محملة

---

(٢) سقطت الدولة المملوكية على يد السلطان العثماني سليم الأول في معركة الريدانية عام ١٥١٧م وبذلك انتهت دولتهم وبدأت دولة العثمانيين أنظر: ياغي– اسماعيل احمد – الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي – مكتبة العبيكان – الرياض – ١٩٩٨م– ص٥٩– ٦٠.

(٣) عبدالله عبدالرحمن صالح – تاريخ التعليم في مكة المكرمة – دار الشروق – جده– ١٩٨٢م– ص٢٧.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى –ج١ –ص٨٦– ١٧١/العيدروسي– النور السافر– ص١٠٤/ الغزي – نجم الدين– الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة – تحقيق جبرائيل سليمان – المطبعة الأمريكية – بيروت – ١٩٤٥م– ص١٩٧.

بالحبوب لأهل الحرمين الشريفين وكان مقدارها سبعة الاف اردب[١] منها الفا اردب لأهل المدينة والخمسة المتبقية لأهل مكة وتخصيص ثلاثة ارادب إلى العلماء والقضاة[٢] وفي اواخر القرن العاشر ٩٩٩هـ/١٥٩٠م أمر السلطان العثماني مراد الثالث[٣] للمجاورين والعلماء والصلحاء بالمدينة المنورة زيادة على ما كان لهم سابقاً حيث حصل لكل واحد منهم عشر ارادب أي ما يعادل بـ١٥٠٠ كيلو غرام من القمح ويشير النهروالي إلى أن السلطان العثماني سليمان القانوني كان يزيد مما يرسله من خزائنه الخاصة[٤]

وكان لهذه الصدقات انعكاسات على استقرار المعيشة للمجتمع المدني وخاصة العلماء وطلاب العلم الذين بدءوا يتفرغون للتدريس ونشر العلم بعد أن وفرت لهم السلطة العثمانية الاستقرار الحياتي والمناخ الملائم.

كما كان احساس السلاطين دائماً بأنهم في حاجة الى دعامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها في إرضاء الشعوب الإسلامية، وكفيلاً بحرصهم على إسترضاء رجال الدين بحكم ما للدين ورجاله من عمق واتساع وميل محبيه على النفوس والإهتمام برضاء العلماء الذين بدورهم سيترجمون رضاهم بثناء على السلاطين، خاصة إذا عرفنا أن كثيراً من العلماء كانوا مجاورين بالحرم الشريف[٥].

نتج عن ذلك أن أصبح لأهالي الحرم الشريف مكانة عالية عند السلاطين العثمانيين الذين حكموا الفترة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م – ١٣٤٣هـ/١٩٢٣م ، حيث شملوهم بحمايتهم،

---

(١)الأردب مكيال مصري للحنطة يسع ٢٤ صاعاً او ٦ ويبات كل ويبة ٨ اقداح كبيرة أو ١٦ قدحاً أو ١٥٠ كيلوغرام يصعب تحديده بدقة أنظر:السنجاري – على تاج الدين – منائح الكرم بأخبار مكة والحرم –ج٣– تحقيق جمال مصري – جامعة أم القرى –مكة – ١٩٩٨م – هامش ص٢٣٦.

(٢)أنظر معلومات مفصلة في الجارشلي – اشراف مكة وامرائها في العهد العثماني– ص٥٢– ٥٣– ٥٤– ٥٥– ٥٦/ بدر– عبدالباسط – التاريخ الشامل للمدينة المنورة –ج٢– دار الفكر – القاهرة– ١٩٩٣م–ص٣٣٢.

(٣) السلطان مراد بن سليم بن سليمان القانوني تولى الخلافة ٩٨٢هـ حقق انتصارات وضم بولونيا إلى حماية الخلافة قامت ثورات في عهده توفى عام ١٠٠٣هـ للمزيد – محمد فريد بك – تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق احسان حقي – دار النفائس – بيروت – ١٤٠١هـ – ص ٢٢٣.

(٤) النهروالي– قطب الدين الحنفي– الاعلام بأعلام بلد الله الحرام– دار خياط– بيروت– ١٩٦٤م–ص٣٨.

(٥) جار الله بن فهد – نيل المنى – م ١ – ص٢٧– ٦٥ / الأنصاري – ناجي محمد حسن – التعليم في المدينة المنورة من العام الهجري الأول إلى عام ١٤١٢هـ – دار المنار – القاهرة – ١٤١٤هـ – ص٣١١.

ورعايتهم، وعنايتهم، وضمنوا لهم الأمن والاستقرار، باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين كما تزداد العناية والاهتمام عند زيارتهم للعاصمة العثمانية.

لذلك كثيراً ما كانوا يتدخلون لتثبيت الأوضاع وتهدئتها ونشر الاستقرار في الحرم الشريف، عن طريق فض النزاعات التي كانت تقوم بينهم حول الامارة.

ونتيجة لذلك فقد زاد النشاط العلمي في عصر العثمانيين، حيث توفر الوقت والمال لديهم، فاهتموا بإنشاء دور التعليم في مكة، ورصدوا لها الأوقاف الواسعة ليضمنوا استمرارها وتأديتها على أكمل وجه ولقد اضاف السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني وقف الدشيشة الكبري[١]حيث بلغ مقدار ما أرسل سنة٩٥١هـ/١٥٤٤م عشرة الاف اردب وأضاف السلطان مراد الثالث أوقافاً أخرى ليرتفع المقدار إلى ستة الاف اردب أي ما يعادل ٩٠٠,٠٠٠ كيلو غرام[٢] وكذلك وقف الدشيشة الصغرى ووقف المحمدية ويدر ربحاً نقدياً وريعاً من الحبوب[٣].

كما كان في الحرم المدني الشريف درس في الحديث يقرأ فيه "صحيح البخاري" قرره أيضاً السلطان العثماني سليمان الذي كان سلطاناً متفقهاً[٤] وقرر لأهل الحرمين الشريفين دشيشه للفقراء كل يوم ولكثير منهم رواتب الذخيرة[٥]كل سنة تحمل إليهم من مائة دينار إلى عشرة أو

---

(١)الدشيشه:وهو حساء كان يطبخ من الحنطة (والقمح) وقد انتشر خلال العهد المملوكي وكان يقدم لطلبة العلم في المدارس – الفيروز آبادي – محمد بن يعقوب– القاموس المحيط– دار الفكر–بيروت – ١٤١٥هـ– ص٧٦٦– وجاء في المعجم الوسيط: هو طعام رقيق من قمح مدقوق– المعجم الوسيط– ج١– ص٢٩٤.

(٢) هريدي – محمد عبداللطيف– شئون الحرمين الشريفين في العهد العثماني – دار الزهراء – القاهرة – ١٩٨٩م ص٥٧ / جار الله بن فهد – نيل المنى – ج٢ – ص٩٦.

(٣) عبدالباسط بدر – التاريخ الشامل للمدينة المنورة – ج ٢ – ص ١٩١ / عبدالغني – عارف احمد – أمراء المدينة المنورة – دار كنان – دمشق – ص ٣٢٤ .

(٤) ابن تغري بردي – جمال الدين يوسف – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ج – دار الكتب – القاهرة– ج١٥– ص٤٥٦– ص٤٥٧– المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي – تحقيق محمد أمين – ج٤– الهيئة المصرية – القاهرة – ١٩٨٦م – ص٢٩٥.

(٥) الذخيرة: ما أدّخر– أي يتم إعطائهم رواتب تكفيهم لسنة. الفيروز آبادي– القاموس– ص٥٠٦.

أكثر من ذلك ولاشك أن هذه الرواتب كانت تشمل العلماء، والفقهاء، والقضاة بالحرمين الشريفين[١].

ويعتبر عامل القضاء من العوامل المهمة التي ساعدت على انتشار العلم حيث اهتم السلاطين العثمانيين باتخاذ شتى الوسائل الكفيلة بانتشار المذاهب السنية الأربعة وإبطال ما عداها وفتح المدارس المذهبية وإرسال العلماء إلى شتى الأقاليم العربية عامة و المدينة المنورة خاصة، كما أثرت بعدم الترشيح لوظائف القضاء والتدريس والخطابة والإمامة بالحرم الشريف إلا إذا كان من أتباع هذه المذاهب الأربعة[٢].

ونخلص مما تقدم الى القول بأن عناية وإهتمام السلاطين بالعلماء قد وفّرت جواً علمياً مبدعاً ساهم في إثراء الحركة العلمية، فتكونت نهضة علمية ضاهت المراكز العلمية الأخرى في العالم الإسلامي.

وخير دليل على ذلك آلاف المصنفات التي تزخر بها مكتبات العالم مطبوعة كانت أم مخطوطة عدا الكثير من التآليف التي فُقدت أو لم يُكشف عنها حتى الآن[٣].

كما تنافس العلماء والأدباء في تأليف الكتب التي تمجد الدولة العثمانية المتسلمة زمام السلطة على العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري ومن أهم المؤلفات التي سطرت لهذه الدولة ما ألفه يوسف الحنفي[٤]، فقد ألف كتابه ((الدر الثمين في بيان آثار السلاطين المتشرفين بخدمة بيت الله الحرام ومدينة سيد المرسلين)) تحدث فيه عن الأعمال التي قام بها الحكام

---

(١) النهروالي– الاعلام باعلام بلد الله الحرام – ص ١٧٨/ جار الله بن فهد – نيل المنى – ج ٢ –ص٥٠

(٢) جار الله بن فهد– نيل المنى–ج١–ص١٨–٥٣–١٢٦–١٣٠– ١٥٧/الجهني– سلطة اشراف مكة–ص٨٦.

(٣) العسيلان – عبدالله عبدالرحيم – المدينة المنورة في آثار المؤلفين والباحثين قديما وحديثا – دار الشروق – جده – ١٤١٨هـ / الهيلة – محمد الحبيب – التاريخ والمؤرخون بمكة – مؤسسة الفرقان – لندن – ٢٠٠٥م.

(٤) يوسف عبدالكريم المدين الأنصاري الحنفي من المؤرخين للمدينة اشتهر بورعه وفضله مولده ووفاته بالمدينة عام ١١٧٧هـ أنظر ترجمته في– سلك الدرر ج ٤– ص٢٤٧ / الزركلي– الاعلام – م٨ – ص٢٣٩.

المسلمون في بناء المسجد النبوي وقام بإهدائه إلى السلطان العثماني السلطان احمد الثالث[١]إقتداء لما قام به عالم مكة ومؤرخها جار الله بن فهد فقد الف عدة من الكتب وقام بإهدائها إلى السلطان العثماني أهمها كتابه "بلوغ الأدب في تملك السلطان سليم خان لأرض العجم والعرب " ويقع في عشرة كراريس[٢]

ثالثاً: اهتمام المجتمع المدني بالعلم:

واهتم المدنيون ومنذ فترة مبكرة بمختلف العلوم التي تركت أثراً كبيراً في الحركة العلمية.

وكان السمهودي وإبن نجار البرزنجي وابن إلياس المدني وإبن كبريت وغيرهم من مؤرخي المدينة وعلمائها في القرن العاشر الهجري من ابرز علماء المجتمع المدني وأسهموا في نشاطاته ولهم بين علمائه وطلابه كثير من الأصدقاء والمريدين ورصدوا في مؤلفاتهم شواهد حية تدل على اهتمام مجتمع المدينة بالعلماء وأشهر علمائه وفقهائه ومحدثيه.

كما ساعدت القدوة الحسنة والتي يمثلها الرعيل الأول من سلفنا الصالح– الذين حملوا أمانه تلقي العلم ونشره– في ترسيخ هذا الاهتمام في نفوس المدنيين حتى أصبحت محبتهم للعلم والرغبة في نشره وكأنها استعداد فطري، وطبيعة جبلوا عليها، فالواحد منهم يطلب العلم، لا لكي يحصل على عائد مادي أو جاه اجتماعي، بل بباعث من نفسه يدفعه إلى التفرغ له، وبذل الغالي في سبيله[٣].

ولاشك فان اهتمام المدني بتلقي العلم والرغبة في تحصيله يشكل أهم عامل ساعد على رقي الحياة العلمية في المدينة المنورة ، إذ أن توفر هذا الاهتمام وتلك الرغبة كفيل بتذليل كل صعوبة تعترض سبيل طالب العلم، وكتب التراجم تروي الكثير من الشواهد التي تبين أن الدافع

---

(١) تولى الخلافة عام ١١١٠هـ اتسم بالصرامة والدهاء حقق انتصارات على خصومه في الداخل والخارج قام بإصلاحات عديدة للرقي والتطوير للدولة في عهده كانت أول مطبعة في اسطنبول للمزيد/ أنظر محمد فريد بك – تاريخ الدولة العلية – ص٤٢٠.

(٢) جار الله بن فهد– نيل المنى– م١– ص ٥٨ / السنجاري– منائح الكرم – ج٢ – ص١١٨ /البغدادي– ايضاح المكنون – ص٢٠١ .

(٣) ابن ماجه– محمد بن يزيد–سنن ابن ماجه– تحقيق محمد فؤاد– دار الفكر– القاهرة– ١٣٩٣هـ رقم الحديث ٢٢٤.

الذاتي للتعلم يدفع المتعلم إلى التفاني في الطلب والاستزادة من العلم وحرصه على طلب العلم أو عندما يذكر لنا التنافس المحمود بين أبناء الأئمة والقضاة في التسابق على ختم القرآن وهم دون سن الخامسة عشرة سنة والصلاة بالناس في أيام رمضان وشدة إهتمامهم بالسماع للأئمة والعلماء داخل الحرم الشريف عند قيامهم بقراءة كتب الحديث[١]وكان طلاب العلم يتحملون المشاق في تلقي العلم، ويحاولون التغلب على الظروف التي قد تواجههم،وخير شاهد على ذلك محمد بن على بن الحسني فقد كان من طلاب العلم المميزين في الإستزادة من منهل العلم والمعرفة رغم فقره ومعاناته وممن بذلوا جهوداً في تلقي العلم، والحرص على لقاء العلماء حتى أصبح محدث المدينة في عصره وممن انتعش بهم فن رواية الحديث في المشرق والمغرب له مؤلفات عديدة اشهرها " التحفة المدنية في المسلسلات الوترية " وكذلك كتابه"ليس في الإمكان ابداع مما كان" توفى بالمدينة [٢].

ورغبة المدني بالعلم جعلته يتتبع أخبار العلماء ويسأل عن أكثرهم علماً وأعلاهم رواية فيمضي إليه لينال من علمه.

كما اشتهر المؤرخ والفقيه محمد الطيب الأنصاري الذي جمع ثقافة دينية واسعة وألف في التاريخ كتابه الدرة الثمينة وكذلك في الفقه والتفسير والتاريخ وآداب السلوك[٣] وكذلك مؤرخ المدينة وفقيها القاضي نور الدين ابو الحسن على المعروف بالسمهودي الذي اشتهر بتأليفه وكتبه المتنوعة والمتعددة-[٤].

ومن الشواهد الدالة على تفانيهم في العلم وتعليمه ما رصده لنا عالم المدينة ومؤرخها جلال الدين اياس بن خير الدين المدني في كتابه "الرياض المستطابة في فضل سكان طابه"[٥]

---

(١) عبدالله صالح – تاريخ التعليم– ص ١٨ / المديرس – المدينة المنورة – ص ٢٣– ٨٧ .

(٢) جار الله بن فهد– نيل المنى م٢– ص١٣٦/ بيومي دور مصر في الحياة التعليمية في الحجاز– ص٤٧.

(٣) محمد الطيب الأنصاري من اعلام المدينة ولد بالمغرب ودفن بالبقيع مؤرخ جليل وفقيه عالم أنظر ترجمته في: الكناني– محمد عبدالحي– فهرس الفهارس والاثبات– ج١ – دار العلوم – فاس– ١٣٤٦هـ– ص١٢١/ الزركلي – الاعلام –م ٦ – ص ٣٠١ .

(٤)الصفدي– الوافي بالوفيات –ج ٣ .

(٥) جلال الدين – اياس المدني من علماء القرن العاشر له مؤلفات عن تاريخ المدينة أنظر ترجمته في: العيدروسي– النور السافر– ص ٣٥٣/ عبدالرحمن الأنصاري – تحفة المحبين – ص ٣٩.

تلك كانت أساليب المدنيين في تحصيل العلم، وهي كما رأينا تنم عن محبة للعلم تلك المحبة التي تدفع إلى بذل كل جهد ومال وصحة في سبيله.

والعلماء المسلمون في مختلف العصور – ومنها هذا العصر قد جعلوا هذه الحقيقة نصب أعينهم، والواقع ان تاريخهم مضيء بالقامات العلمية والحرص والاهتمام ومعاناتهم في كسب العلوم والمعارف وتزخر كتب التراجم بالصور التي تبين الرغبة الحقيقية لنشر العلم، والتي كان عليها العلماء في هذه الفترة فهذا العالم الفاضل يوسف شكري بن عثمان الخريوتلي من فضلاء الحنفية رومي الأصل قدم إلى المدينة المنورة جند نفسه للتعليم وأصبح مدرساً بمدرسة المحمدية له مؤلفات عديدة ابرزها "سلسلة الصفا لمحمد المصطفى" و"منطق في الأزهرية " فكان يستقبل طلاب العلم في داره، ويهييء لهم الأسباب من أجل أن يستفيدوا من علمه[١].

ولقد كان التعليم بالمجان، هو المبدأ الذي اتبعه معظم علماء المدينة المنورة ولا شك أن ذلك من أهم العوامل التي ساعدت الكثير من طلاب العلم على الاستفادة من هؤلاء العلماء دون حرج، فليس كل طالب علم قادراً على دفع المال ليتعلم[٢].

ولهذا فإن كثيراً من العلماء يعزى إلى عمله الذي يزاوله ويتكسب من ورائه كالقضاة فهم لا يعتبرون التعليم مصدراً للرزق بل يمارسونه احتساباً وشعوراً منهم بحق مجتمعهم عليهم لذلك كرس قاضي المدينة وعالمها وفقيها ومدرسها ومؤرخها نور الدين أبو الحسن على السمهودي وقتاً لطلابه لينهلوا من علمه وفقهه وتاريخه[٣] وفوق ذلك فانك تجد الواحد منهم لا يقتصر على تعليم ابناء بلده فقط، بل يتنقل في العديد من البلدان يقريء القرآن هنا، ويسمع الحديث هناك.

وأخيراً فقد كان العلماء يقضون أعمارهم في تعليم العلم، ويخرجون أجيالاً من المتعلمين.

---

(١) العيدروسي – النور السافر – ص٣٥٣.

(٢) جار الله بن فهد – نيل المنى– م ٢– ص١٠٥/ الجودي – خالد حسن – الحياة العلمية في الحرمين الشريفين في القرن العاشر– كلية الآداب – جامعة الملك سعود – رسالة ماجستير – ١٤٣١هـ – ص ٨٦ .

(٣) نور الدين ابو الحسن على الحسني الشافعي مؤرخ المدينة المنورة من مشائخ وعلى العصر اشتهر بمؤلفاته الكثيرة أنظر ترجمته في: العيدروسي– النور السافر ص٥٨/السخاوي– الضوء اللامع– ج٥ –ص٢٤٥.

المجاورون:

لعب المجاورون دور كبير في إثراء الحركة العلمية بالمدينة، وهؤلاء المجاورون هم الذين أرادوا البقاء في مكة أو المدينة النبوية بجوار الحرمين الشريفين، وكان بقاؤهم إما لدوافع دينية أو علمية أو اقتصادية أو سياسية. ولقد نشطت حركة المجاورة في الحرمين الشريفين نشاطاً ملحوظاً في العصر العثماني ويتضح ذلك من خلال كتب التراجم التي زخرت بها كتب الطبقات والتراجم وكذلك المصادر التاريخية المدنية التي ألفت في ذلك العصر، والتي حرص مؤلفوها على الإشارة لمن جاور في هذه الفترة(١)

وكان أكثر المجاورين بالحرمين الشريفين من مصر كالسخاوي الحافظ ابو عبدالله شمس الدين محمد بن عبدالرحمن الأصل القاهري اشتهر بمؤلفاته توفى في المدينة(٢) وكذلك نور الدين على المولود بسمهود (بمصر) أنتج كثير من المؤلفات في شتى علوم المعرفة والتاريخ والدين(٣) ومن المجاورين من بلاد الشام محمد بن سليمان الكردي وكان على درجة كبيرة من النشاط العلمي الذي استفاد منه المسلمون في الحرمين الشريفين وقد تولى افتاء الشافعية في المدينة حتى وفاته عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م(٤) وكذلك بدر الدين محمد الغساني من حلب جاور بالمدينة ويعود ذلك الى إشراف العثمانيين السياسي على المدينة من جهة، وإلى قرب الديار المصرية من المدينة وسهولة الوصول اليها من جهة اخرى(٥)كما كان هناك مجاورون من العراق كمحمد مهدي الرفاعي المعروف بالرواسي كان من أكابر العلماء المدينة عام

---

(١) انظر امثلة على ذلك: ابن حجر- الدرر الكامنة- الفاسي- العقد الثمين- السخاوي- الضوء اللامع- التحفة اللطيفة- العيدروسي- النور السافر- جمال الدين الشلي- السنا الباهر جار الله بن فهد – نيل المنى- ص٢٨- ٣٣- ٤٦- ٥١- ٧٨- ١١٥- ٢١١- ٢٤٨- ٢٩٦- ٣٤٠.

(٢) السخاوي - الضوء اللامع – ج ٨ – ص ٣٢/٢ – العيدروسي – النور السافر – ص١٦ – البغدادي – ايضاح المكنون – ج ١ – ص ٢٧ .

(٣)السخاوي الضوء اللامع – ج ٥ – ص ٢٤٥ / العيدروسي – النور السافر – ص ٥٨.

(٤)الزركلي - الاعلام – م ٥ – ص ٢٣/٢٢ .

(٥) محمد بن مصطفى بن رسلان كاتب اديب له شعر قوي ولد بحلب عمل في الصحافة أنظر: الزركلي – الاعلام – ج ٥ - ص٣٢٣- ٣٢٤.

١٢٣٥هـ/١٨١٩م[١] وأميز من جاور ببلاد المغرب العلامة باللغة والأدب محمد بن الطيب محمد الفاسي وهو شيخ الزبيدي صاحب تاج العروس من كتبه "المسلسلات" في الحديث وفيض "نشر الإنشراح" وغيرها من الكتب [٢]، ولم تقتصر المحاورة على البلاد العربية بل تعدت إلى البلدان الإسلامية الذين أسهموا في إثراء العلم والمعرفة ويتضح ذلك في العلامة المولود في بلاد السند محمد بن عبدالهادي ابو الحسن نور الدين السندي اشتهر بعلم الحديث والتفسير والعربية له حواشي عديدة على سنن ابن ماجه وصحيح البخاري ومسند الامام احمد وكان اكثر المجاورين من العلماء والزهاد[٣]، لذا فقد كان هؤلاء المجاورون خيراً على مكة والمدينة سواء كانوا علماء أوتجاراً بعلمهم الذي حرم الله أن يكتم[٤.]

كما أن بعض هؤلاء العلماء المجاورين كانوا يصطحبون معهم جلّ كتبهم إلى الحرمين الشريفين مما ساعد على تنشيط الحركة العلمية في الحجاز[٥]

هذا وقد اهتم العلماء المجاورون بتدريس العلوم الشرعية خاصة علم الحديث وعلم القراءات، والفقه والتفسير وغيرها من العلوم الشرعية والعلوم الأخرى، ويطالعنا في هذه الفترة أعداد هائلة من العلماء المجاورين بالحرمين الشريفين ومن أبرزهم الشيخ العلامة محمد بن عبدالباقي البخاري تولى خطابة الحرم المدني عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م له مؤلف مميز وهو الطراز المنقوش في محاسن الحبوش[٦] وكذلك الفقيه العلامة رحمة الله بن عبدالله السندي الفقيه الحنفي

---

(١) الزركلي – الاعلام – م ٥ – ص ٣٣٤ .

(٢) محمد الطيب محمد الفاسي المكي عالم باللغة والأدب له مؤلف فيض نشر الانشراح ومؤلفات جمة انظر ترجمته:الزركلي – الاعلام –ج٧– ص٤٧.

(٣) محمد عبدالهادي التتوي ابو الحسن فقيه حنفي عالم بحر في العلوم والتفسير أصله من السند – أنظر ترجمته: الزركلي – الاعلام –ج٧– ص١٣٢ .

(٤) بيومي – دور مصر في الحياة التعليمية في الحجاز – ص٦٨.

(٥) جارالله بن فهد– نيل المنى– ص٤٧–٨٦– ١٢٧ /منى المشاري– المجاورون في مكة والمدينة–ص٩٧.

(٦) محمد عبدالباقي علاء الدين أديب وعالم تولى القضاة وخطابة الحرم النبوي أنظر ترجمته في: البغدادي – إسماعيل باشا – هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار– ج٢– اسطنبول – ١٩٤٥م– ص٢٦٥ /رحمة الله بن عبدالله بن إبراهيم السندي المدني له مؤلفات عديدة أنظر ترجمته في:الغزي – نجم الدين محمد – الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة – تحقيق جبرائيل جبور م٣– بيروت – ص١٥٢/ كحالة عرم رضا – معجم المؤلفين– ٤– مطبعة الترقي– دمشق– ١٩٥٧–ص٨٦ .

جاور بالمدينة توفى في حدود ٩٩٣هـ/١٥٨٥م له عدد من المؤلفات في علوم الدين كرسالة في بيان الاقتداء بالشافعية والخلاف في ذلك[١].

ولقد كان المجاورون على درجة كبيرة من النشاط في انتاج العديد من الكتب والمؤلفات في مختلف الفنون والعلوم ومن ابرز هؤلاء المجاور محمد الطرابزوني الشهير بالمدني كان مدرساً وقيماً على الكتب بجامع السليمانية باسطنبول صاحب التصانيف العديدة والتأليف المفيدة أميزها " تحفة الأخوان" و"الاتحافات السنية في الاحاديث القدسية".[٢]

وكان المجاورون يبتغون الراحة النفسية في ظلال الحرم النبوي الشريف والإقامة بالمدينة المنورة وهذه الراحة النفسية جعلت الكثير منهم يصنفون تصانيف كثيرة ويؤلفون مؤلفات ضخمة أثروا بها المكتبات الإسلامية، وساعد على حركة المجاورة ما قام به السلاطين من إنشاء المدارس، والأربطة والمقامات، وإقامة الدروس في الحرم الشريف[٣] .

لذلك فقد حرص كثير من علماء المسلمين على المجاورة في الحرم الشريف حيث يتم الإلتقاء بين علماء المسلمين من المشرق والمغرب المتعددي الثقافات والمذاهب، وكان هذا اللقاء بمثابة فرصة جيدة لنشر علومهم، وابراز معارفهم عند بعضهم البعض، وكذلك فقد كانت تمنح الإجازات لطلاب العلم، وكانت نتيجة ذلك وحدة ثقافية ومعرفية بين أطراف العالم الإسلامي، لأن بعض هؤلاء المجاورين يعودون إلى بلدانهم مزودين بالعلم والمعرفة، فقدموا لنا إنتاجاً فكرياً عالياً تجلى في أمهات الكتب العظيمة التي أثروا بها المكتبة الإسلامية.

---

(١) رحمة الله بن عبدالله بن إبراهيم السندي المدني له مؤلفات عديدة أنظر ترجمته في:الغزي – نجم الدين محمد – الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة – تحقيق جبرائيل جبور م٣- بيروت – ص١٥٢/ كحالة عرم رضا – معجم المؤلفين – ٤- مطبعة الترقي – دمشق – ١٩٥٧- ص٨٦.

(٢) محمد بن محمود بن صالح بن حسن فقيه حنفي أديب من أهل المدينة مارس التدريس له مؤلفات عديدة ابرزها "الاتجاهات السنية" أنظر ترجمته في: البغدادي – هدية العارفين –ج٢- ص٣٤٥/ ايضاح المكنون –ج١- ص٢٣٩/ الزركلي – الاعلام –م٧- ص٣١١.

(٣) جار الله بن فهد- نيل المنى- م١ - ص١٦- ٣٨- ٥١- ٨٦- ٩٧- ١٩١- ٢٥٠- ٣١٠/ منى المشاري – المجاورون في مكة والمدينة – ص٢٣- ٢٤.

وفي الحقيقة فإن فئة من المجاورين كان لهم دور كبير، ويكاد يكون تأثيرهم العلمي في المدينة المنورة اقوى من تأثير العلماء المكيين أنفسهم، ولولا كثرة المجاورين لما احتاج الأمر إلى شيخ ينظم أمورهم من خلال الأربطة التي تولوا مشيختها [١].

دور المكتبات في التعليم:

من المعروف أن الكتب والمكتبات قد أدت دوراً مهماً في حياة المسلمين وشكلت صرحاً بارزاً من صروح الحضارة الإسلامية لدرجة أن هذة الحضارة أصبح يطلق عليها "حضارة الكتاب"، وذلك منذ أن كان المسلمون يعتبرون كل كتاب إبتداء من القرآن الكريم يمثل عالماً كاملاً بنفسه فهو بالنسبة لهم يمثل مالم يمثله أي شيء لأي شعب من شعوب العالم القديم فهو المصدر الوحيد الذي لاينضب للحياة الروحية[٢].

ولم يقتصر دور المكتبات على البحث والتأليف بل كانت مكاناً لعقد الحلقات العلمية، فمن العلماء من يبيت في مكتبته بصحبة بعض طلابه الملازمين له ويجد طلابه في ذلك فرصة لعرض بعض المسائل على الشيخ وتلقي إجاباته عليها، وقد يكون احد الكتب موضوعاً لحلقة علمية يعقدها الشيخ لتلاميذه[٣]

ويعدّ القرن العاشر الهجري برعاية العثمانيين وما قدموه من عناية وإهتمام بالكتب والمكتبات يسجل في تاريخهم العلمي كذلك عنايتهم بالحجاز عامة والحرمين بشكل خاص وايمانها بأن المكتبات تمثل جزءا من الشعاع الفكري والمعرفي واثراء الحياة العلمية والتعليمية لذلك تميزة المكتبات في المدينة المنورة خلال عصرهم وأصبحت هناك نوعان من المكتبات خاصة وعامة وكانت تضم أعداداً كبيرة من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون وتعتبر هذه المكتبات مظهراً من مظاهر الحياة العلمية في المدينة وكان لها دور بارز في إثراء وتنشيط الحركة العلمية.

---

(١) جار الله بن فهد– نيل المنى– م١ – ص٩– ١٦– ٩١– ١١٨– ١٣٦– ١٣٧–٢١٠ – ٢١٥– ٣٠٦.

(٢) الجميل– محمد بن فارس– المكتبات العربية في العصر العباسي– مجلة العصور– المجلد الرابع– ذو القعدة– ١٩٨٩م– ص٢٥٧– ص٢٦١.

(٣) جار الله بن فهد – نيل المنى – ص٧٢ – ١٠٥ – ٢٩٠ – النهروالي – الاعلام – ص٢١٣ – القطبي – الاعلام –ص٩٨/ السخاوي –التحفة الطيفة –ج٣– ص٤٦٣/ الجهني – سلطة اشراف مكة –ص٨٦.

١- المكتبات الخاصة:

وهي التي يمتلكها الأفراد من العلماء وطلاب العلم، الذين حرصوا على اقامتها بمجهوداتهم الذاتية تعبيراً على اهتمامهم بالناحية العلمية والخصوصية لهذه المكتبات تتعلق بملكيتها، وإلا فإن دورها العلمي كان إلى العموم أقرب منه إلى الخصوص، إذ المعروف أن كل مكتبة من هذه المكتبات تجاوزت في فائدتها العلمية صاحبها إلى من حوله من طلاب العلم وساعد على ذلك انتشار حركة النسخ للمصاحف وأمهات الكتب الدينية والأدبية وكل المصنفات ومختلف الكتب في العلوم والفنون وبرز فن الخط والتجليد.

ومن المتوقع أن يكون لكل عالم مكتبته الخاصة، ولذلك فمن الطبيعي أن يكون هذا النوع من المكتبات أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من النوع السابق.

ومن المكتبات الخاصة بالمدينة مكتبة القاضي السمهودي وكانت عامرة بالكتب حيث ضمت الفاً من المجلدات ونفائس الكتب وهذا العدد بالنسبة لذلك الوقت يعتبر عظيماً وساعده على ذلك ثراؤه على جمع هذه الكتب(١).

ويسجل لنا جار الله بن فهد أن الشيخ الصوفي عفيف الدين عبد الله احمد الخفاشي اليمني المتوفي عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م امتلك مكتبة كانت تضم أعداداً كبيرة من الكتب وكان حريصاً على تحصيلها ضنيناً بإعارتها متمثلاً بقول الشاعر:

ألا يا مستعير الكتب أقصر فإن إعارتي للكتب عـــار
فمحبوبي من الدنيا كتـــاب وهل أبصرت محبوباً يعار(٢)

٢- المكتبات العامة:

وكانت تتوزع في أكثر من مركز علمي فهي كما يلي:

أ- مكتبة الحرم النبوي الشريف:

كان المسجد المدني هو المكان الأول الذي احتضن هذا النوع من المكتبات في المدينة المنورة على اعتبار أن المسجد اضطلع بأهم الأدوار في النشاط العلمي واصبح من أهم المراكز

(١) العيدروسي – النور السافر – ص ٥٨ / السخاوي – الضوء اللامع – ج٥ – ص ٢٤٦ .

(٢) جار الله بن فهد – نيل المنى– ج ٢– ص١٩١/ حمادة – محمد ماهر– المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها – بيروت – ١٩٧٠م – ص٧٧ .

للتعليم والتدريس وجذب إليه الطلاب من مختلف العالم ولكون الكتاب عنصراً رئيسياً في هذا النشاط فمن الضروري أن يكون في متناول طلاب العلم وقريباً منهم.

فالمسجد الشريف كان يضم كثيراً من نسخ القرآن الكريم والكتب الإسلامية، لأنه ملتقى المسلمين لأداء مناسكهم التعبدية من ناحية، والتعلم من ناحية أخرى، كما يحصل التبادل العلمي بين علماء المسلمين سواء بعقد حلقات الدرس في المسجد أو بتبادل الكتب العلمية، أو إهداء إنتاجهم العلمي إلى هذه الأماكن المقدسة[١].وفي العصر العثماني ازداد الاهتمام بالكتب والمكتبات في المسجد النبوي الشريف فأوقف سلاطين بني عثمان عليه مجموعات ضخمة من الكتب ليستفيد من طلاب العلم ولقد ضمت إلى الحرم الشريف مكتبة السلطان سليمان القانوني ومكتبة المدرسة الحميدية ومكتبة عمر قرة شاه وكانت قبل ذلك ضمن مكتبة السلطان قاتيباي[٢]

ب- خزائن الكتب في الأربطة:

كثرت الأربطة في المدينة خلال القرن العاشر الهجري. والتي كان يقوم بإنشائها سلاطين وأمراء الأطراف، وغيرهم من محبي الخير، وقد إشتهر بعض الأربطة بنشاطه التعليمي ووجود العديد من الكتب المهمة فيه، وقد كثرت هذه الكتب في بعض الأربطة إلى أن أصبح بعضها تضم مكتبات ضخمة فيها جميع فنون العلم [٣].

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الواقفين لهذه الكتب في الأربطة كانوا من سكانها لمعرفتهم بأن هذه الأربطة تأوي كثيراً من طلبة العلم الفقراء، والذين لا يملكون أموالاً لشراء الكتب، فكانوا يحسون ويشعرون بمعاناتهم، خاصة وأنهم كانوا يقيمون معهم ومعايشين لواقعهم، لذلك أوقفوا كتبهم في هذه الأربطة خدمة لهم ولطلبة العلم الآخرين[٤].

---

(١) الغزي – الكواكب السائرة – م ٣ – ص ٢٧/١٨.

(٢) محمد بيومي – دور مصر في الحياة الفكرية –ص٢٢٦.

(٣) جار الله بن فهد – نيل المنى– ج١– ص١٨١/ العصامي– سمط النجوم العوالي–ج٤– ص١١٨.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى – م٢– ص ٥٦/ المجبي – خلاصة الأثر –ج١– ص٢٣٩/ البغدادي – هدية العارفين– ج١– ص٥٤٨.

جـ – خزائن الكتب في المدارس:

كما قامت المكتبات المدرسية التي أنشأها السلاطين والأمراء والقضاء، والعلماء بدور كبير في توفير الكتب لطلاب العلم وهذه المكتبات وإن كانت أقل عمومية من مكتبات المساجد إلا أنها ساعدت في تنشيط الحركة العلمية في المدينة، وعين لبعض هذه المدارس أمناء لمكتباتها من أجل المحافظة على الكتب، وتقديم العون لطلاب العلم في جلب ما يطلبونه من منها.

وقد اختلف العناية بالمكتبات باختلاف أمانة الخازن، وحرصه وسعة إطلاعه فمنهم من حفظها، ونمى عدد كتبها بإمدادها بما يستجد من مخطوطات ومنهم من أهمل الاشراف عليها فامتدت اليها الأيدي بالسرقة ونحوها وتبددت محتوياتها مع الأيام(١).

ولاشك أن هذه المؤلفات والكتب التي شكلت حيزاً كبيراً في إنشاء المكتبات كانت تمثل مظهراً من مظاهر النشاط العلمي بالمدينة، وربما قام مؤلفوها بتدريسها، إما في الحرم الشريف، أو في المدارس التي كانوا يقومون بالتدريس فيها، أو في الأربطة التي كانوا مشايخها(٢).

لذلك نستطيع أن نحكم أن المكتبات الخاصة والعامة كانت مظهرا أساسيا من مظاهر الحياة الثقافية والفكرية في المدينة المنورة، وكثيرا ما تلحق هذه المكتبات بالمدارس والاربطة وكذلك المكتبات الخاصة في المدينة المنورة، فقد أشار الشيخ علي بن موسى في وصفه للمدينة المنورة عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م على بعض المكتبات الموجودة حينذاك كما يلي: (٣)

١. مكتبة عارف حكمت: وهي أنظم المكتبات جميعا وفيها من الكتب النفيسة ما لا يوجد في غيرها، ولها خدمة بمعاشات شهرية تأتيهم من وقفه عليها بالأستانة، وفيها مجلدون وموظفون، وهي لا نظير لها في بلاد الحجاز.

٢. مكتبة المدرسة المحمودية للسلطان محمود.

٣. مكتبة مدرسة بشير أغا الملاصقة لدار السلام.

---

(١) السخاوي – التحفة اللطيفة – ص ٧٨ .

(٢) نبيلة المطيري– الحياة العلمية – ص ٣٥ / الانصاري – التعليم في المدينة –ص ١٩٨ .

(٣) المدني– على موسى– وصف المدينة المنورة – تحقيق عادل عبدالمنعم– مكتبة الثقافة– المدينة– ١٤٢٦هـ– ص١٢٣ .

٤. مكتبة المدرسة الحميدية بالساحة.
٥. مكتبة المرحوم أمين بن شيخ الحرم.
٦. مكتبة المرحوم السيد جمل الليل.
٧. مكتبة المرحوم أحمد بساطي.
٨. مكتبة رباط (سيدنا عثمان) [١].

وقد أشار الرحالة إلى وجود المكتبات الخاصة , فذكر أنه رأى إحدى هذه المكتبات في منزل أحد العلماء وأنها كانت تحوى ثلاثة آلاف مجلد على الأقل ، وتوجد المكتبات الموقوفة حتى لا يتمكن أحد من نقل هذه الكتب أو تحويل ملكيتها وتحدث الرحالة دولتشين عن وجود مكتبات في المدارس الدينية الموجودة داخل المدينة ، بالإضافة لمكتبتين عامتين هما: مكتبة شيخ الإسلام , ومكتبة المحمودية ، وفى كل منهما قرابة ٦٠٠٠ مجلد ، أغلبها كتب مخطوطة دينية المضمون , وبينها نسخ نادرة جداً , وهذه المكتبات لها أوقاف تمولها , ومنها ينفق على موظفيها الذين يتقاضون راتبهم منها [٢].

وفصّل الرحالة محمد لبيب البتانوني الحديث عن مكتبة شيخ الإسلام "عارف حكمت" فقال : هي قريبة من باب جبريل إلى جهة القبلة ، وهذه الكتبخانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر ، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام فيها حنفيات للوضوء وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن ٥٤٠٤ كتاب . ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة في بابها [٣]. ويذكر أن بها كتاب أشعار بالفارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل لملا شاهي وحروف الكتابة إنما هي ملصوقة على الورق ... فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته , ويعجز اللسان عن نعته" [٤].

---

(١) الحلواني– سعد بدير – تعمير المدينة المنورة – مطبعة الحسين – القاهرة – ١٤١٤هـ – ص٢٦.
(٢) يقيم يزفان –الحج قبل مائة سنة – الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي الرحلة السرية لدولتشين إلى مكة – دار التقريب – ١٩٩٩م– ص ١٧٤.
(٣)البتنوني – محمد لبيب : الرحلة الحجازية – مكتبة المعارف – الطائف ؛ ط٣ – د.ت, ص٢٥٤ .
(٤) المصدر السابق , ص ٢٥٥ .

أما إبراهيم رفعت فقد قدم إحصاء عن المكتبات الموجودة في المدينة سواء المكتبات العامة أو تلك الموجودة في المساجد والمدارس وهى تدل على انتشار عادة القراءة آنذاك. وهذا الإحصاء هو :

العـــدد	اســم المكتبــة التي يوجــد بهــا الكتــاب
١٠٨١مصحف	بالروضة .
٤٥٩٦مصحف و كتاب	مكتبة السلطان محمود بباب السلام .
١٦٦٩ كتاب	مكتبة مدرسة السلطان عبد الحميد الأول .
٢٠٦٣ كتاب	مكتبة بشير آغا بجوار باب السلام .
١٢٤٦ كتاب	مكتبة الشفاء التي أنشأها شيخ الإسلام فيض الله .
٥٤٠٤ كتاب	مكتبة عارف حكمت شيخ الإسلام وهى قريبة من باب جبريل وهى أحسن المكتبات وأنظفها وأجملها ترتيباً .
١٢٦٩ كتاب	مكتبة مدرسة عمر أفندي .
٥٩٣ كتاب	مكتبة مدرسة مصطفى أفندي الساقزي .
١٥٨ كتاب	مكتبة أمين باشا شيخ المسجد النبوي سابقاً .
٤٦١ كتاب	مكتبة مدرسة مصطفى أفندي التي تسمى بالاحسانية .
١٢٩ كتاب	مكتبة مدرسة الشيخ عبد الغفور ألنجاري أحد المجاورين .
١١٠٠ كتاب	مكتبة تكية الشيخ مظهر أفندي .
١٠٠ كتاب	مكتبة مدرسة حسين آغا ناظر التكية المصرية سابقاً .
١٠٠ كتاب	مكتبة مدرسة أمين أفندي الفنايجرى .
٢٠٦ كتاب	مكتبة مدرسة محمد أفندي ثروت .
١٠٥ كتاب	مكتبة أحمد أفندي ألبساطي أحد أئمة الحرم سابقاً .
١٥٧ كتاب	مكتبة مدرسة الكيلي الناظر أحد المجاورين .
٥٠٠ كتاب	مكتبة سليم بك رئيس التشريفة للحضرة السلطانية
٢١٨٥٥	مجموع الكتب ..... [١]

هذا بينما قدر الرحالة البتنونى هذه الكتب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المنال، ولو جمعت كل هذه الكتب في دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان أنفع والفائدة منه أكبر[٢].

(١) رفعت – إبراهيم :مرآة الحرمين – نسخة بالأوفس دون تحديد تاريخ الطبع أو مكانه – ج١ , ص ٤٢٢ .

(٢) البتنوني : مرجع سابق , ص٢٥٥ .

ويشـــير "هيكل" إلى أنه أثناء الحرب العالمية الأولى وبعد إعلان الشريف حسين الثورة علـــى الدولة العثمانية أخذ فخري باشا خير ما في المكتبات من نفائس فبعث بها إلى الآستانة ... وكـــان لكتب السلف المحفوظة بمكتبات المدينة سلطان على النفوس لا سبيل إلى إنكاره[١]

المؤسسات التعليمية:

الكتاتيب:

اختلف اللغويون في اشتقاقات هذه الكلمة ودلالة كل اشتقاق، فعند ابن منظور "المكتب أو الكُتّاب" موضع تعليم الكُتّاب (أي الصبيان) والجمع الكتاتيب والمكاتب، وعلى هذا فهو يرى جواز إطلاق لفظة (الكُتّاب) على موضع التعليم وعلى الصبيان الذين يتعلمون في هذا الموضع[٢].

وكان للكتاب دور هام في دفع الحياة العلمية في المدينة فقد وجدت الكتاتيب جنباً إلى جنب مع المسجد ليسهم في نشر العلم والمعرفة.

عرفت كتاتيب تعليم الأطفال قبل ظهور الإسلام، يقول البلاذري: "كان الكتاب بالعربيـــة في الأوس والخزرج قليلاً وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية وكان تعلمـــه الـــصبيان فـــي الزمن الأول فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون"[٣]. وتعتبر المرحلة الأولى التـــي يقدم فيها الطفل إلى الكتاب عندما يشتد عوده ويستوي لسانه يقول ابوبكر العربي " وللقوم فـــي التعليم سيرة دينيه وهي أن الصغير إذا عقل بعثوه إلى الكتاب"[٤] وتعتبر هذه المرحلة الخطـــوة الأولى للتعليم حيث يتعلم الطفل أساسيات الثقافة الإسلامية من قرآن كريم وقراءة وكتابـــة وخـــط ولها أهمية كبرى حيث تنبت الآداب في نفوس الصبيان وتصبح خلقاً ثابتاً فيهم.

وفي العصر العثماني استمر الاهتمام بهذا التعليم الأولي إذ هو في الحقيقة الأساس لكـــل تعليم لمن أراد أن يسير في درب التحصيل والتعليم، أما من تجبره ظروفـــه المعيـــشية –كأبنـــاء الحرفيين مثلاً– على الانقطاع، فإنه يكون قد أصاب من التعليم ما يخرجه من دائرة الأميين.

---

(١)هيكل – محمد حسين : في منزل الوحي – دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٥٦ هـــ, ص٤٧٩ .

(٢) ابن منظور– لسان العرب– ج١– ص٦٩٩.

(٣) البلاذري–احمد بن يحيى– فتوح البلدان– تحقيق رضوان محمد– دار الكتب– بيروت– ١٣٩٨ه– ص٤٥٩.

(٤)العربي– محي الدين محمد–الاعلام باشارات أهل الالهام– دائرة المعارف العثمانية–حيـــدراباد– ١٣٦٢م– ص٦٧.

وكانت الغاية من إقامة هذه الكتاتيب هي تحفيظ وعرض وكتابة السور القصار من القرآن الكريم، فضلاً عن معرفة الخط[١]، والاستخراج، والضبط، والفهم للمسائل، وبعض متون الأحاديث، وعقائد السنن، وأصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات، والأشعار[٢].

وقد استمر الكتاب يؤدي دوره التعليمي عبر العصور الإسلامية، ففي العصر العثماني نجد أن الكتاب في المدينة يمثل المرحلة الأولى التي تهيئ الصبي للانتقال إلى نظام الحلقة في المسجد النبوي أو إلى مؤسسات التعليم الأخرى كالرباط والمدرسة، وكان يقوم بتعليم الصبية شخص يدعى المعلم ويطلق عليه أحياناً المؤدب ويشترط فيه عدة صفات ابرزها معلماً للقرآن الكريم مشهوراً بالخير والعفاف ويساعده "العريف" يعينه على تأديب الأطفال وتعليمهم[٣]، وكان الهدف من إنشاء معظم الكتاتيب في العصر المملوكي ثم كثف في العصر العثماني على نطاق واسع تعليم الأيتام، لهذا السبب أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها, وأطلق عليها مكاتب السبيل أو مكاتب الأيتام، وقد وجدت إشارات عديدة حول وجود الكتاب لتعليم الصبيان، ومنها المكتب الذي أنشأه السلطان المملوكي قايتباي ضمن مرافق أخرى قام ببنائها في المدينة حول المسجد النبوي بعد إعادة إعماره في أعقاب الحريق الذي حصل له سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م.[٤]

---

(١) يشير ابن خلدون إلى المكتب كان يتعلم فيه الصبيان الخط دون تجويد- لأن تلك وظيفة مفردة في غيره قائلاً: "وأهل المشرق...لايخلطون بتعليم الخط- بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له عن انفراد- كما تتعلم سائر الصنائع- ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان- وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة- ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته-نفس المصدر السابق-ص٨٣٩.

(٢) ابن مسكويه- ابو علي احمد بن محمد- تهذيب الأخلاق- بيروت- دار الكتب العلمية- ١٩٨١م- ص٥١- ص٥٥/ الشيرزي- عبد الرحمن بن نصر- نهاية الرتبة في طلب الحسبة- تحقيق السيد الباز العريني- الطبعة الثانية- بيروت- دار الثقافة- ١٩٨١م- ص١٠٣- ابن الاخوه- ضياء الدين محمد- معالم القربة في أحكام الحسبة- نشر روبن ليفي- كمبردج- ١٩٣٨م- ص١٧٠.

(٣) دهيش – عبداللطيف عبدالله – الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولها – مطبعة الهضة – مكة المكرمة – ١٤٠٦هـ – ص ٥٦ .

(٤)المديرس – المدينة المنورة – ص٢٤٣/ خالد الجوهي – الحياة العلمية في الحرمين – ص٦٦.

كانت أدوات الطالب في هذه الكتاتيب تتكون عادة من الواح مصنوعة من الخشب ومعهم ما يستلزمه أمر الكتابة من أقلام ومداد يكتب عليه المدرس للطالب الحروف أو الكلمات أو الجمل التي يدرسها، فإذا ما أجادها إجادة تامة يقوم الطالب بمسح اللوح في مكان خاص بالكتاب، وذلك بمادة تسمى المدر أو (المضر) مع الماء، حتى يكون جاهزا لكي يكتب عليه المدرس الدرس الجديد، وبجانب اللوح فإن الطالب يجب أن يكون لديه نسخة من القرآن الكريم، أو الجزء الذي يقوم الطالب بدراسته وعادة لا يأخذ الطلاب هذه الألواح والمصاحف إلى منازلهم، وإنما يجب عليهم تركها في الكتاب، حتى لا تضيع أو تتعرض للتلف، علما بأنه في بعض الكتاتيب لا تتوفر ألواح أو نسخ من القرآن الكريم كافية لجميع الطلاب، وإنما يتم تداولها بينهم، وكان في بعض الكتاتيب يستعمل قلم القصب والدواة: (المحبرة). [١] ثم يلي هذه الطريقة الحفظ ثم التسميع فالعلم يقوم على تلقين الصبي ما يراد حفظه بتكراره مرات عديدة وهذه الطريقة هي المتبعة في تعليم الصبيان في هذه المرحلة فهي طريقة اعمق واسهل نظرا لتوسع العلوم والمعارف.

وكان تعليم الكتاب في أمكنة مخصصة للتعليم وهي عبارة عن مكان مستقل، أو غرفة في منزل، أو غرفة مجاورة للمسجد تكون خاصة لتعليم الصبية، ومثال ذلك الردهة التي تقع بداخل الباب المجيدي بالمسجد النبوي غرف مخصصة لتعليم الأطفال القرآن الكريم، ومبادئ القراءة العربية على المنهج القديم، وفوقها غرف مثلها ولقد أزيلت تلك الغرف في التوسعة السعودية. [٢]

ولا يوجد سن معينة لالتحاق الصبي بالكتاب، وكانت حالة الكتاتيب تتصف بالصفات التالية:

١- لا يوجد في الكتاتيب فصول دراسية يوزع الطلاب فيها حسب مستوياتهم، بل كان جميع طلاب الكتاب يجتمعون في مكان واحد مختلفين في المستويات العلمية والأعمار.

٢- لا يوجد في الكتاب مقاعد دراسية بل جلوسهم على الحصير.

---

(١) عبداللطيف بن دهيش - الكتاتيب في الحرمين الشريفين - ص٥٦/٥٧.

(٢)الأنصاري-عبد القدوس-آثار المدينة المنورة- الطبعة الثالثة-المكتبة السلفية-المدينة المنورة-١٣٩٣هـ- ص١٠٠.

٣- لا يوجد اهتمام بالنواحي الصحية.

٤- كانت الشدة تخيم على الكتاب حيث كان معلم الكتاب يستخدم أنواعا مختلفة من العقاب لتأديب الطلاب(١).

أما المناهج في الكتاتيب ففي معظمها يقتصر على دراسة القرآن الكريم , ويتعلم الطالب في الكتاتيب " فك الحرف ويتعرف على مخارج الحروف وضبطها بالشكل ثم يتدرج معهم المعلم في توضيح السنن وحفظ القرآن المجيد , ويبدأ من السورة الصغيرة , ويكتب الحروف على لوح , وهى طريقة طويلة بعيدة المدى تتطلب جهداً ووقتا طويلين , وقد يشب الطالب عن الطوق , وهو مازال في مراحلة التعليمية الأولى , لذلك كان لا يجتاز هذه المرحلة من الطلاب في سن مبكرة الا النوابغ بالغوا الذكاء والفطنة (٢).

كما أن هناك كتاتيب خاصة للفتيات في المدينة ويقوم بالتعليم فيها معلمات من أهالي المدينة ويدرسن فيها مواد مشابهة للمواد التي تدرس للصبيان.

كان التعليم في المدينة المنورة في ذلك العصر يبدأ بالكتاتيب التي كان بعضها داخل في أنحاء المدينة المختلفة, ويذكرها على بن موسى بقوله: " وأما مكاتب الصبيان ففي مسجد القزلار حافظ بهرام آغا بجانب وابور الطحين داخل الرباط في العنبرية واحد , وفى السبيل فوق قنطرة سبيل أبى جيدة واحد , وفى مكتب المرادية الخراب قاوش السوري وعقيل واحد , وفى مكتب المرحوم سليم بك الماينجى واحد , وفى سبيل بيت الخليفتى واحد بوجهة المناخة , وفى زاوية القشاشى واحد , وفى زقاق النخاولة واحد , وأما داخل المدينة المنورة فاثني عشر للقراءة في مؤخر الحرم الشريف , وواحد لتعليم الغة الفارسية , كله من خيرات المرحوم السلطان عبد المجيد خان لما وقف لبناء الحرم الشريف في زمن سلطته(٣) وكان هناك أيضا كتاتيب للبنات وهى كالتالي:

١- كتاب الشيخة زينب مغر بليلة , حوش درج .

٢- كتاب الشيخة التركية معمرة , باب بصرى .

---

(١) الشمراني, عبد الله بن دوس بن عبد الله - أبرز مشكلات الإدارة المدرسية في المدارس الأهلية للبنين بمدينة مكة المكرمة, رسالة ماجستير- كلية التربية- جامعة أم القرى- مكة المكرمة- (١٤٢٩)- ص ١٥.

(٢)السيد عثمان حافظ : صوره ذكريات عن المدينة المنورة , المدينة , النادي الأدبي, ١٤٠٣هـ, صـ١٦١.

(٣) وصف المدينة المنورة - صـ١٢٣.

٣- كتاب الشيخة فاطمة هانم بنت يوسف , الساحة .

٤- كتاب الشيخة سلمة بنت مبارك , حوش الراعى .

٥- كتاب الشيخة زهرة سنارية حرم حسن تاج الدين , زقاق البدور .

٦- كتاب الشيخة عائشة بنانية , الساحة حوش التكارنة .

٧- كتاب الشيخة فاطمة بنت الشيخ خليل التكرونية , حارة الآغوات .

٨- كتاب الشيخة خديجة النظيفة , حوش التاجورى .

٩- كتاب الشيخة سلمة بنت محمد عابد , الجديدة .

١٠- كتاب الشيخة فاطمة بنت أحمد التكرونية,باب المجيدى رباط عزت باشا.

١١- كتاب الشيخة زوجة الشيخ الشامى , زقاق العاصى في القشاشى .

١٢- كتاب الشيخة فخرية هاشم بالشونة[١] .

وكانت الحصص الدراسية مقسمة إلى فترتين رئيسيتين في أغلب الأحيان تبدأ من الصباح الباكر حتى صلاة الظهر, ثم تكون هناك استراحة لمدة ساعة تقريبا أو أكثر يعود فيها الطلاب إلى منازلهم لتناول طعام الغذاء, ثم يعود مرة أخرى لاستئناف الدراسة حتى صلاة العصر , وبعض الكتاتيب تستمر الدراسة فيها حتى آذان المغرب[٢] وتكون الدراسة في الفترة الصباحية للمواد الأكثر صعوبة وحفظ القرآن أما فترة ما بعد الظهر فتكون الدراسة للمواد المختلفة واستظهار ما حفظوه على معلمهم.

وهكذا نرى أن الكتاتيب أدت دوراً علمياً كبيراً ومهماً في الحياة الثقافية في المدينة، كما أن التشجيع الذي لاقاه الطلاب من آبائهم وإقامتهم الاحتفالات والأعياد بمناسبة ختمهم للقرآن الكريم لذلك نستطيع أن نؤكد أن هذه الكتاتيب رفعت المستوى التعليمي بين أبناء المدينة المنورة وقد تخرج منها أعداد كبيرة من الطلاب التحقوا بعد ذلك بحلقات الدروس في المسجد النبوي الشريف وأصبح هؤلاء فيما بعد من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والمعارف .

---

(١)الخيارى ياسين احمد ياسين : الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة – جده- ط٢ ١٤١٥هـ , ص١٢٢.

(٢) عبداللطيف بن دهيش – الكتاتيب في الحرمين الشريفين – ص ١١٨.

التعليم بالمسجد النبوي الشريف:

المسجد أول مدرسة في الإسلام أسسه النبي ﷺ كي يبني ويصنع الرجال ويعدهم خير إعداد وعلى أساس المسجد يقوم كيان الأمة الروحي.

فالمسجد في الإسلام ليس مقراً للعبادة وللقيادة والريادة فحسب، بل إن له إلى جانب ذلك أدى دورًا بالغ الأهمية، في التنشئة الثقافية والفكرية والعلمية، إضافة إلى كونه مصدر إشعاع تربوي واجتماعي ولا شك أن حلقات العلم في المسجد قد لعبت دوراً في الحياة الثقافية العلمية.

يعتبر التعليم في المسجد المرحلة الثانية من التعليم حيث يعقب المرحلة الأولية أو مرحلة المكتب، وإذا كنا قد أشرنا عند حديثنا عن المكتب إلى أن بعض معلميه قد اتخذوا من المسجد مكاناً لتعليم صبيانهم، فلا يعني ذلك أن سن المتعلم والمنهج الذي يدرس فيه هما اللذان يحددان مرحلة المسجد التعليمية.

وظلت هذه الحلقات تؤدي وظيفتها في ساحتها بالإضافة إلى إقامة المناظرات التي اثرت المذاهب بالأداء فذاع صيتها، واشتهر أمرها، ووفد عليها الكثير من طلاب العلم، وعشاق المعرفة وأصبحت تساهم مساهمة فعالة في تطوير الحركة الدينية فكان لذالك أثره البعيد في تقدم العلوم الدينية والمذاهب الفقهية وهذا ليس مستغرباً لأن الصلة بين المسجد والعلم جوهريةوعضوية لذلك كان من الطبيعي أن يتخذ التعليم في المدينة منذ بداية أمره من المسجد مركزاً رئيسياً له تتدفق فيه الوان المعرفة الإسلامية ويتركز فيه علماء المسلمين على اختلاف ثقافاتهم ومنازعهم العلمية فمن محدثين ومفسرين وقراء إلى فقهاء وقصاص وأصحاب مغازي وسير.

وقد استمرت حلقات العلم في المسجد الحرام، تعقد منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، حيث يحفل المسجد بالعديد من الحلقات التي تتميز في غالبيتها في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها العديد من الناس، والخاصة بالفتايا، حيث يجلس العديد من مشاهير رجال العلم في الحرم الشرف للإجابة على تلك التساؤلات الخاصة بالأمور الدينية، والردود عليها[1]وتزداد هذه الحلقات كثرة

(١) جار الله فهد– نيل المنى– ص٨– ٢٦– ٤٨– ٩٧– ٢٣٠– ٣٩٠/ ابوغده – حسن عبدالغني– الوقف ودوره في التنمية الثقافية والتعليمية–مجلة الشريعة– جامعة الأمارات–ع٢٢ – ٢٠٠٥م– ص(٢٢– ٩٩) ص ٤٦.

في أوقات مواسم الحج، وفي رمضان المبارك، حيث يكثر الزوار في هذه المواسم وتعقد حلقات مختلفة من جميع العلوم النقلية والعقلية ومختلف المعارف[١].

ولم يكن معظم العلماء يتقاضون راتباً من الدولة لقاء الدروس التي يقومون بتدريسها في المسجد الشريف، وكذلك فإنهم كانوا لا يأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة، لأن تعليمهم كان لله وفي سبيل الله، ولكن لم يترددوا في قبول الصدقات التي تبعث بها الدولة العثمانية في مواسم الحج[٢] فإن معظم العلماء لا يقتصرون في تدريسهم على علم واحد فقط، وبالتالي فقد كان لهؤلاء العلماء أكثر من حلقة في اليوم، وكان العلماء يفاضلون بين العلوم التي يدرسونها تقديماً وتأخيراً، فيقدمون اقراء القرآن وتفسيره ثم الحديث وعلومه... الخ، وعلى طالب العلم أن يشغل يومه كله إذا أراد التمكن من حضور أكبر عدد ممكن من الحلقات[٣].

وبذلك فقد كان المسجد النبوي الشريف بمثابة الجامعة الإسلامية تدرس فيه العلوم الدينية الإسلامية و العربية والتاريخ و التراجم والفرائض وغير ذلك من العلوم تدرس في حلقات بعد الصلوات الخمس وما بينها , ويخرج منه العلماء و الفقهاء والمفسرون والمحدثون والكتاب والمفكرون والقادة والمصلحون, وقد روى أن للإمام مالك مؤلفا في الفلك, بين فيه مدارات حساب الزمن ومنازل القمر ، والإمام مالك درس وعلم وتعلم في المدينة ولم يخرج منها طول حياته إلا للحج[٤]

وتكونت في المسجد النبوي مكتبة كبيرة كانت حصيلة ما وقفه الملوك والحكام والعلماء والأثرياء في مراحل تاريخية مختلفة, ففي عام ٥٨٠هـ , كانت فيه خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة , وعلى مر الأزمان زادت المكتبة لزيادة الكتب الموقوفة فيها

(١) الوشلي– عبدالله قاسم – المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ – مؤسسه الكتب الثقافية – بيروت – ١٩٩٠م– ص٥٦ / الانصاري – التعليم في المدينة – ص ٣١١.

(٢) جار الله بن فهد – نيل المنى – ص٣٦/٥١/٨٨ / خالد الجوهي – الحياة العلمية في الحرمين – ص٧٨.

(٣)جار الله بن فهد– نيل المنى–ص١٦– ١٨– ٤٦–٥٩–١٨٩–٢١١/ المديرس– المدينة المنورة–ص٢٤٨.

(٤)ابن فرحون– إبراهيم بن علي المالكي – الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب – تحقيق محمد الأحمدي ابو النور – القاهرة – دار التراث – ١٩٧٢م – ص ١١٨ /حافظ على: فصول من تاريخ المدينة , شركة المدينة, جده, د/ت, ص٢٣٣.

وبذلك فقد قام المسجد النبوي بالدور المنوط به في نشر العلم فكان بحق منارة علمية تشع ضيائها على العالم الإسلامي كله [١].

وكانت طريقة التعليم في الحرم النبوي تقوم على نظام الحلقات وكان كل عالم يقلى على طلبته العلوم التي تبحر فيها وبناء على ذلك فلم يكن لأي منهم منهج مقرر يسير عليه في مدرسته فهو غير محدد ولكن إطاره العام يشمل جميع ميادين الحياة العلمية فالدراسة في الحرم الشريف لم تسر وفق مناهج مقررة أو محدودة إذا أن العالم هو الذي يقرر ما يريد تدريسه والكتب التي يعتمدها في تدريسه وقد تكون هذه الكتب من تأليفه وفق ما يراه مناسباً لطلابه والطالب يختار المدرس الذي يلائمه ، وربما ينتقل من حلقة إلى أخرى حسب رغبته، حتى يستقر به الأمر في النهاية مع الاتجاه والموضوع والشيخ الذي يلاءم استعداداته وميوله، كان الشيخ وطلبته يجلسون ببساطة على حصيرة في جو علمي وديني، ويستمع خلالها الطلبة بكل إنصات وهدوء إلى شيخهم، الذي بعد أن ينهي حديثه يبدأ النقاش بين الأستاذ وطلبته .

وكانت هذه الحلقات تمثل مظاهر النشاط العلمي ليس في المدينة فحسب بل في الحجاز ويصف ابن فرحون الحرم النبوي وما يدور فيه من حركة علمية يقوله"كان للحرم الشريف أبهة عظيمة ومنظر بهي ، كنت إذا دخلت المسجد الشريف وجدت الروضه وقد غصت بالمشائخ"[٢]

وقد أبقى العثمانيون على طرق التعليم القديمة في إلقاء الدروس داخل أروقة الحرم النبوي الشريف دون محاولة تحسينها أو تحديد برامج زمنية لها، أو تخصيص مناهج علمية يتقيد بها المدرسون، ويسيرون على نهجها.

لذا فقد ظلت حلقات التدريس التي يعقدها بعض العلماء والفقهاء في العصر العثماني في أماكن مختلفة من أروقة المسجد النبوي الشريف أهم وسيلة لتثقيف الناس في الأمور الشرعية والعربية،

---

(١)المزيني – عبد الرحمن سليمان: الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجريين, المدينة المنورة, النادي الأدبي, ١٤٢٤هـ, صـ١٣١.

(٢) ابن فرحون– الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب–ج ٢– تحقيق محمد ابوحمدي – ص٢٥٧.

وما يتعلق بهما من علوم، ويعود السبب في بقاء التدريس مقصورا داخل الحرم النبوي الشريف على المعارف المذكورة، إلى عدة أسباب منها: [١]

١. حب الناس وألفهم لهذا النوع من العطاء المتميز بالأصالة والإخلاص لرسالة المسجد الأولى في الإسلام.

٢. قصر الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في الحث على طلب العلم داخل مسجده الشريف على المعارف المذكورة، وقد بلغ الأمر بأحد علماء المدينة إلى اعتبار عدم الاعتناء بعلوم الفلسفة والرياضة وكتب الكلام والجدل من محاسن المدينة.

٣. حرص الدولة على عدم إجراء تغيير مخالف لأنظمة الحرم القديمة وافتقار السلطة العليا لإدارة الحرم الشريف إلى قوة التأثير في نقل نظم العاصمة وفنونها إلى المدينة المنورة.

ويمتد وقت الدراسة بالمسجد على مدار السنة من بعد صلاة الصبح حتى وقت الضحى، ومن بعد صلاة العصر حتى آذان العشاء، فيما عدا أيام المواسم الممتدة من سبعة عشر ذي القعدة حتى نهاية شهر ذي الحجة، وكذلك يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، ومن الجدير بالذكر إجماع بعض مصادر العصر العثماني على توفر عدة طرق للدراسة والتذكير داخل أروقة الحرم النبوي الشريف، وقد أمكن استخلاصها وترتيبها على النحو التالي: [٢]ويذكر أحد الدارسين:" أنه كان يوجد أيام دراسته في المسجد النبوي الشريف نحو عشرين حلقة يتوسطها فطاحل العلماء من بعد الفجر حتى بعد العشاء" [٣]وإذا ما أراد الطلاب المتخرجون في الكتاتيب والمدارس الدينية إكمال دراستهم , فإنهم يتجهون إلى المسجد النبوي , حيث كانت حلقات الدروس عامرة بالطلاب من طلبة العلم , ومن أصحاب الأعمال , فبعضهم يدرس علوما معينة , وبعضهم يحضر الوعظ والإرشاد والفقه والتوحيد إلا أن الدراسة لم تكن منتظمة تنظيما دقيقا أو ملزمة , فكل طالب موكول لرغبته وجهده في الدراسة , يدرس العلم الذى يريده ويحضر الدرس الذى يريده وكان له حق الاختيار في الوقت الذي يناسبه وفي العلم الذي يجد فيه ميوله ورغبته ,

---

(١) محمد الشهري- المسجد النبوي الشريف في العصر العثماني- ص ٤٢٦.

(٢) محمد الشهري- المسجد النبوي الشريف في العصر العثماني - ص ٤٢٦/ المديرسي – المدينة المنورة – ص ٢٤٥ /٢٤٦.

(٣) السخاوي – الضوء اللامع – ج ٣ – ص ١٨٣- ٢٥٦ – الأنصاري – التعليم في المدينة –ص١١٦.

ولا توجد اختبارات للطلاب , وعندما يستوعب دروس شيخه واستاذه يحصل منه على إجازة للتدريس في ذلك الموضوع وغالباً ما يحصل الطالب على إجازات من عدة مدرسين وكان طلاب العلم في المسجد النبوي يحرصون لنيل هذه الإجازات ويهتمون بجمعها وقد خلف علماء ذلك العصر عدداً وافراً من هذه الإجازات التي تلقي الضوء على الحياة العلمية عندئذ وكانت الإجازة اذن بمنحة التدريس وأنه مؤهل للتدريس والجلوس لنشر العلم(١).

شيوخ المسجد النبوي في عهد العثمانيين:

ومن علماء المسجد النبوي في العهد العثماني: (٢)

م	الاسم	م	الاسم	م	الاسم	م	الاسم
١	محمد مدني	٢	محمد أسعد	٣	مأمون بري	٤	إبراهيم بري
٥	ماجد بري	٦	عمر بري	٧	أبو بكر داغستاني	٨	أبو بكر جاد
٩	أحمد كماخي	١٠	أحمد بساطي	١١	حمزة بساطي	١٢	ملا سفر
١٣	الشيخ خليل	١٤	الخربوطلي	١٥	خليل مبرحلي	١٦	حبيب الرحمن
١٧	خير الدين إلياس	١٨	تاج الدين إلياس	١٩	عبد الرحمن إلياس	٢٠	محمد علي أعظم حسين
٢١	عبد الحق رفاقت علي	٢٢	الشيخ زاهد	٢٣	علوي سقاف	٢٤	علوي بافقيه
٢٥	أحمد برزنجي	٢٦	تركي برزنجي	٢٧	محمد جمل الليل	٢٨	محمد العايش
٢٩	عبد الحي أبو خضير	٣٠	عبد الفتاح أبو خضير	٣١	عبد الوهاب أبو خضير	٣٢	عبد الباري رضوان
٣٣	عبد المحسن رضوان	٣٤	عبد الله رضوان	٣٥	أحمد الخياري	٣٦	محمد الهجرس
٣٧	عمر كردي شهر زوري	٣٨	عبد الحفيظ كردي شهر زوري	٣٩	علي كردي شهر زوري	٤٠	خليل أغا- شيخ الأغوات
٤١	محمد كمل	٤٢	محمد صقر	٤٣	أحمد صقر	٤٤	أحمد مرشد
٤٥	محمد العربي	٤٦	الشيخ الخضر	٤٧	حبيب الله الشنقيطي	٤٨	حمدان الونيسي
٤٩	عمر حمدان المحرسي	٥٠	جعفر الكتاني	٥١	مكي الكتاني	٥٢	محمد الوزير التونسي
٥٣	محمد الكافي	٥٤	الشيخ حميد الطيب الجزائري	٥٥	الفا هاشم الفوتي	٥٦	سعيد الكردي
٥٧	محمد الأخميمي	٥٨	محمد العمري	٥٩	محمد البسكتي	٦٠	محمد الساسي
٦١	الحبيب المغربي	٦٢	حسين أحمد المدني	٦٣	محمد إسحاق الكشميري	٦٤	عبد الباقي اللكنوني الأنصاري
٦٥	عبد العليم الهندي	٦٦	محمد الطيب الأنصاري	٦٧	مصطفى صقر الفتاوي	٦٨	ياسين أحمد الخياري
٦٩	الملا صقر البخاري	٧٠	الملا محمد يولداش البخاري	٧١	سعيد التكروني	٧٢	عبد القادر الشلبي الطرابلسي
٧٣	محمد علي التركي	٧٤	محمد الخضر الشنقيطي	٧٥	أحمد الفيض آبادي	٧٦	عبد المحسن أسعد
٧٧	السيد جعفر هاشم	٧٨	عباس رضوان	٧٩	حسن أزميرلي	٨٠	إبراهيم أسكوبي
٨١	عبد الجليل برادة (وغيرهم)						

(١) الأنصاري – التعليم في المدينة –ص٢٠١.

(٢) الأنصاري – التعليم في المدينة المنورة – ص ٣١٥– ٣١٦.

ومن الحقائق التاريخية التي لا يختلف فيها إثنان أن الحرم المدني الشريف قام بدور قيادي أصيل في صناعة القاعدة الثقافية التفاعلية العالمية وإرساء دعائمها لقد كان المسجد النبوي جامعة علمية عالية المستوى حققت الأطر التعليمية التثقيفية عبر قنوات عديدة بإشراف فقهاء وعلماء العصر ورجالات العلم من أهل المدينة والمجاورون وممن تصدروا للإقراء والتدريس للمواد المختلفة.

المدارس:[١]

التعليم بالمدينة قديم جداً يرجع إلى صدر الإسلام حيث تعتبر المدينة المنورة أول مركز علمي إسلامي لكونها مقر الدولة النبوية .

وهكذا اكتسبت المدينة بجانب مكانتها الدينية مكانة علمية منذ صدر الإسلام، وإذا كانت المدارس الإسلامية قد بدأت في التطور في منتصف القرن الخامس الهجري على يد مؤسس المدارس نظام الملك [٢]. فقد قامت المدارس في المجتمع المدني إلى جانب المسجد النبوي الشريف والكتاب وأسهمت في تربية وتعليم المجتمع المدني

من الطرق التي سلكها الحكام والأمراء المسلمون في المدينة المنورة، وقف المدارس والأربطة والمكتبات الخاصة والعامة، فقد شيدوا الكثير منها في طول البلاد وعرضها، وأنفقوا عليها وعلى علمائها وأساتذتها وموظفيها وطلابها ومستلزماتها بسخاء منقطع النظير، لا تزال معالمه باقية إلى اليوم وقد أسهمت تلك الأوقاف المتنوعة في إيجاد حضارة مزدهرة ذات طابع أخلاقي وسلوك إنساني رشيد، وتكوين انطلاقة هائلة ذات ارتقاء فكري حر ومستقل، كما أوجدت

---

(١) المدْراسُ والمدرسُ: الموضع الذي يُدْرَسُ فيه– والمدْرُسُ الكتاب– والمدارس الذي يقرأ الكتب ويُدرسها– ودَرَس الكتاب يُدْرُسُه دَرْساً ودِراسة: إنقاد لحفظه– ومن قوله تعالى: {وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دَرَسَت}– سورة الأنعام– آية١٠٥– بمعنى تَعلّمت وعلمت أو أقرأت– وفي الحديث: {وتدارسوا القرآن}– أي: إقرءوه وتهدوه لئلا تنسوه– الجوهري– الصحاح– ج٣– ص٩٢٧– انظر: ابن منظور– لسان العرب– ج٦– ص٧٩– ص٨٠– الفيروز آبادي– القاموس– ص٧٠٢.

(٢) نظام الملك هو: ابو علي الحسن بن علي اسحق بن العباسي الطوسي– ولد عام ٤٠٨هـ/١٠١٨م أصبح وزير السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان داود بن سلجوق– تأدب بآداب العرب وسمع الحديث واشتغل بالأعمال السلطانية اغتاله ديلمي ودفن بأصبهان عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. ترجم له: ابن خلكان– وفيات الاعيان– ج١– ص١٤٣– الذهبي– سير اعلام النبلاء– ص١٥– ٨٦.

تلك الأوقاف نهضة علمية وثقافية شاملة، كان من آثارها وجود مئات الآلاف من العلماء والباحثين والمؤلفين، في شتى المعارف الإنسانية والتخصصات الثقافية والعلمية والاجتماعية، التي أفادت منها الحضارة الغربية الحديثة. (١)

ويلاحظ بإجلال عظيم العناية والتسابق لسلاطين الدولة العثمانية والأمراء والمقتدرين وغيرهم في العالم الإسلامي في إنشاء عدد كبيراً من المدارس، وذلك يرجع إلى مكانة المدينة المنورة في نفوس العثمانيين فهي التي تهفو أنفسهم إليها ويشعرون دائماً بانتمائهم إلى رابطة واحدة هي رابطة الدين الحنيف ولا شك أن المدارس كانت ذات أثر بارز ضمن المؤسسات التعليمية بالمدينة للمساهمة في نشر التعليم فيها، وقد كان جل اهتمامهم متجهاً إلى تبني سياسة تعليم العلوم الشرعية ونشرها نظراً لمكانتها الدينية السامية فتعددت، وزادت العناية بها. وكانت هذه المدارس تؤدي وظيفة اجتماعية إضافة إلى صفتها العلمية(٢)،حيث كانت ملجأ للمرتادين والمعوزين، فقد كان يجد بها العالم والمتعلم والعابد والمرتاد والمعوز والمنقطع الغذاء العلمي والروحي والمادي والمأوى(٣)، وذلك فيما يلقى بها من دروس علمية، وما كانت تقدمه من رواتب نقدية وعينية للمدرسين والطلبة وبقية العاملين بها، وما كانت تقدمه للمعوزين والمنقطعين من مأوى وزار بفضل ما كان يخصصه لها مؤسسوها من أوقاف توقف عليها ليضمن ريعها استمرار هذه المدارس في أداء رسالتها العلمية والاجتماعية(٤). ولا شك أن الهدف الأساسي من وراء كثرة المدارس في المدينة المنورة في هذا العصر هو خدمة الدين الإسلامي وما يتفرع من مختلف العلوم العقائدية والتشريعية.

وكان وجود العلماء والفقهاء والقضاة والمجاورين في الحجاز في القرن العاشر الهجري بأعداد كبيرة مع تعمق في مختلف الدراسات العقائدية والاجتماعية عاملاً مشجعاً

(١) أبوغدة- الوقف ودوره في التنمية الثقافية والعلمية – ص٢٩.

(٢) جار الله بن فهد- نيل المنى- م٢- ص٧- ٩٦- ٢٦٦/ الجابري- الحياة العلمية في الحجاز- ص٣٣٠.

(٣) جار الله بن فهد – المصدر السابق- ص٨١- ١٢٩/ بيومي –دور مصر في الحياة العلمية – ص٢٥٢.

(٤) طرخان ابراهيم- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى- القاهرة- ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م- ص٣٢٤- ص٣٢٥.

لأصحاب السلطة والأثرياء ومحبي العلم والتعليم والمقتدرين، لإنشاء المدارس وكان من أسباب إنشاء المدارس تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان أو الأمير(١).

ويقوم نظام المدرسة على منشئ لها يسميها بإسمه ويقف عليها من الأوقاف ما يفي باحتياجاتها وعلى ناظر يتولى شئون النظر في هذه الأوقاف وقد يكون مدرسها وعلى مدرسين، ومشرف على شؤون المكتبة وإمام ومؤذنين وقيم على المدرسة وخدم (٢)

ويفضل نظام الوقف استطاعت هذه المدارس أن تؤدي وظائفها التعليمية بانتظام، وكان المدرسون يختارون بعناية كبيرة، ويتم تعيينهم من قبل الواقف.

ويلاحظ ارتباط المدارس بالمذاهب الإسلامية الأربعة، فيختص بعضها للفقهاء الشافعية، وبعضها للفقهاء المالكية، وبعضها للحنفية، وبعضها للحنبلية(٣).

كما أن وجود السكن بهذه المدارس لطلاب العلم وغيرهم من الغرباء والمجاورين ساعد كثيراً على إبقائهم فترة أطول بمكة والمدينة ويؤدون به حق العلم وينالون به رفيع الثواب(٤)، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المدارس كانت تؤدي وظائف اجتماعية مهمة، فكانت في بعض الأحيان للقضاء يفصل فيها بين القضايا التي تحدث بين العلماء والأعيان وغيرهم(٥).

أما نظام التعليم في هذه المدارس التي تمارس التعليم الاحترافي فكان يسير على النهج الذي يراه المتبرع أو الواقف بإنشاء المدرسة، فكان يقرر ما يراه للتدريس بها، ويعين المدرسين والطلبة بها وفقاً لأحد المذاهب الأربعة، كما كان يختار العلوم التي تدرس بها(٦).

---

(١) جار الله بن فهد – نيل المنى– ج ٢– ص٣١٨– ٣٧٦– الحجي– حياة ناصر– السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده– مع تحقيق ودراسة وثيقة– وقف سرياقوس– الطبعة الاولى– الكويت– مكتبة الفلاح– ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م– ص١٠٦– زيدان جرجي– تاريخ التمدن الإسلامي– ج٣– راجعها وعلق عليها حسين مؤنس– القاهرة– دار الفكر– ١٩٨٦م– ص٢٢٥– ص٢٢٦.

(٢) جار الله بن فهد – م٢ – نيل المنى– ص٦٣/ الجابري – الحياة العلمية في الحجاز– ص٣٣١.

(٣) النهروالي– الاعلام– ص٩٨.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى– م ٢– ص٩٦– ٣٦٩.

(٥) المصدر السابق – م ٢ – – ص٢٠٨– ٢٥١ / الجابري – الحياة العلمية في الحجاز – ص٣١٠.

(٦) جار الله بن فهد – نيل المنى – م ١ – ص ١٨٧ .

كان الأساتذة والشيوخ يقومون بتدريس الطلاب في المدارس وفي مواد مختلفة وهم متضلعون مبرزون يعينون بواسطة مرسوم[١] سلطاني أو تعيين من الناظر على المدرسة وكانوا يصنفون كما يلي:

(١) الصدر الرئيس وهما لقبان يدلان على اعلى مرحلة يصل اليها من يقوم بمهنة التدريس فالصدر هو استاذ متخصص في المادة التي أوكل اليه أمر تدريسها[٢].

ويبدو أن الصدر أمام العصر في الفقه أو الحديث أو التفسير أو هو أكبر الأئمة وأكثرهم تمكناً في مادته وعليه يتخرج الكثيرون من نوابغ المدرسين وإليه يذهب كبار رجال الإمرة للاستماع إليه، والإفادة منه وليس من الضروري أن يكون لكل مدرسة صدر[٣].

(٢) طبقة المدرسين– وهم الذين يعينهم الصدر في شرح مادته، ويساعدونه في تدريس العلم من تفسير وحديث وفقه ونحو وغير ذلك. وقد تستغني هذه المدارس عن مدرسيها[٤]

(٣)طبقة المعيدين ووظيفتهم تلي المدرس في الرتبة ومهمتهم هي إعادة الدرس بعد فراغ المدرس منه ويعينون على نشر علمه وإلقاء دروسه وتثبيت أملاءته على الطلبة تفسيراً وتبسيطاً كما أنهم يساعدون الطلبة الذين يستحون على المراجعة والذاكرة ومن هنا فهم دون المدرس دراية وأكثر من الطلبة معرفة، وعددهم في المدارس أكثر من عدد غيرهم في الغالب[٥].

وقد استقرت في المجتمع المدني شروط معينة ينبغي أن تتوفر في كل المدرسين واتسامهم بالنزعة العلمية واتصافهم بالأخلاق الرفيعة وأن يكون صاحب معرفة علمية واسعة

---

(١) المراسيم جمع مرسوم وهي كتب كانت في الجاهلية وهو ما جرت به العادة بكتابته للمسامحة من المقررات واللوازم السلطانية أو بمعنى امتثال الأوامر وكان يكتب التقليد لشريف مكة تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي للمزيد أنظر:ابن منظور–جمال الدين محمد– لسان العرب – ج ١٢– دار صادر– بيروت – ١٩٨٧م– ص٢٤١/ القلقشندي–على– صبح الاعشى في صناعة الانشاء – تحقيق محمد حسين–ج ١١– دار الفكر–بيروت– ١٩٨٧م– ص١٠٧.

(٢) القلقشندي – صبح الاعشى – ج ٦– ص ١٤ / بيومي – محمد علي – دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز ابان العصر العثماني– دار القاهرة – مصر – ٢٠٠٦م– ص٣٦ .

(٣) جار الله بن فهد–نيل المنى– م١ – ص١١٣– ٢٢٦– القطبي– اعلام– ص١١٣.

(٤) جار الله بن فهد– نيل المنى– م١– ص٤٧– ٩٦– ١١٨– ١٢٣/القلقشندي–صبح الاعشى– ج٥– ص٤٦٤.

(٥) جار الله بن فهد–المصدر السابق– م١– ص١١٧– ٣٤٨/القلقشندي– صبح الاعشى–ج ٥– ص ٤٦٠.

في اختصاصه قادراً على التحكم في مجالس التدريس مع إبداعه في طريقة أسلوبه وسلاسة تدريسه وحسن حديثه(١).

وقد يكون العالم مدرساً بمدرسة ومعيد بأخرى وقد يتولى المدرس التدريس في أكثر من مدرسة وقد يجمع الواحد بين القضاء والتدريس والخطابة(٢).

فتذكر بعض المصادر عن أحد العلماء أنه "تولى التدريس"، بإحدى المدارس على مذاهب مالك أو الشافعي، وأن آخر "تصدر للإقراء" أي إقراء مذهب مالك، أو الشافعي، وأن ثالثاً كان يتولى الإعادة، وهكذا... وتدلنا هذه النصوص على أن وظائف التعليم التي يشغل فيها الشيخ "وظيفة الصدر" لإقراء مذهب معين من مذاهب الفقه(٣).

إن الاستعراض التفصيلي التي كانت تدرس في هذه المدارس خير دليل على التنوع وكانت مواد الدراسة في هذه الحقبة تختلف من مدرسة لأخرى تبعاً لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها ولكنها مع هذا كانت تتفق جميعاً في أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والعلوم المنطقية، ولا شك أن ثقافة القائمين على هذه المدارس ثقافة إسلامية خاصة وكانت أهم المواد التي لها المكانة البارزة حفظ القرآن تلقيناً صيانة له عن التحريف ثم تأتي دراسة القراءات المختلفة للقرآن واشتهار كثير من العلماء في هذا العصر بإتقانهم لها(٤).

ويأتي بعد القرآن وقراءاته علم الحديث ورجاله وقد ظفر هذا العلم بمؤسسات خاصة ،ويلي هاتين المادتين الرئيستين في الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية. أما قواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا من المواد المساعدة التي تمهد للدراسات الدينية العميقة ولقد ساعد على ذلك أن كثيراً من علماء الحجاز ومجاوريه ملمين بكل المعرفة لهذه الثقافة الدينية مشهورين في مادة من موادها، أو في المواد كلها حتى ما أمكن ذلك(٥).

---

(١) خالد الجوهي – الحياة العلمية في الحرمين – ص١٣٨.

(٢) العز بن فهد– غاية المرام– ج١– ص١٤٨– جار الله بن فهد – نيل المنى– ص٤٦– ٤١٠.

(٣) المصدر السابق– ص٧٨– النهروالي– الاعلام– ص٩٩.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى– م ١– ص٩٦– ٢٣٢.

(٥) جار الله بن فهد – نيل المنى– ص١٢٩– ٤٣٠/ خالد الجوهي – الحياة العلمية في الحرمين– ص١٧٨.

وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ كبيراً في هذه الفترة وتعد وسيلة أساسية للتحصيل وهو الشيء الذي دفع بهم إلى الاستمرار في المطالعة والاكثار من المذاكرة والمناظرة والاشتغال بالتأليف حتى لا تتعرض معلوماتهم إلى النسيان .

أما طريقة التدريس فأولها طريقة العرض : أن يقرأ الطالب من كتاب استاذه أو من كتبه أو من ذاكراته بحضور استاذه وذلك ليتأكد الأستاذ من صحة ما يحفظه الطالب وما يقرؤه من الأساليب . أما طريقة الإملاء : أعد أغلب العلماء طريقة الإملاء في التعليم أعظم الطرق حتى لمن يأخذون بالسماع من حفظ الشيخ أو من كتاب بين يديه أما الشيخ أو المدرس يجلس لإملاء الدرس على طلابه فيكتبوه ثم يأخذون في مناقشته.

وعلى أية حال فإن مدارس المدينة المنورة في القرنين التاسع والعاشر الهجري كانت تقف بشموخ وهي تنافس وتضاهي مدارس القاهرة واسطنبول في تلك الفترة ويعتبر النشاط الفكري فيها استمراراً وتتويجاً للجهود المتكاتفة التي يبذلها الأفذاذ من العظماء المسلمون في أطهر بقعة على وجه الأرض.

تعددت طرق تحمل العلم تبعاً لاختلاف مستويات الطلاب، وتنوع المواد التي تدرس، ولما كانت طرق التعليم هي الأساليب العملية التي تنفذ بها أهداف التعليم وغاياته، فلا بد لمن يتولى التعليم أن يختار منها ما يساعده على الوصول إلى الأهداف المتوخاة من التعليم.

ومن طرق تحمل العلم :

أولاً: السماع:

وهو أن يسمع الطالب من لفظ شيخه، فالشيخ بهذه الطريقة يلقي ما لديه من علم، والطالب يستمع إلى حديث شيخه، فهي بهذا المعنى القائية إذا راعينا جانب الشيخ، وسماعاً بمراعاة جانب الملتقي الذي هو الطالب.

ويعد السماع من الشيخ، سواء أكان الطالب يستمع دون كتابة أم كان سماعه معززاً بتدوين المادة العلمية التي يلقيها الشيخ [1]أ على درجات التحمل وأدعى إلى الثقة في المادة العلمية المحصلة، لأن الشيخ والطالب كليهما يكونان بعيدين عن الغفلة، كما أن المقابلة التي

(١) القاضي عياض- الالماع- ص٦٩- / جار الله بن فهد - نيل المنى- ص١٨- ٣٦- ٤٧.

تجرى في العادة بين أصل الشيخ وما كتبه الطالب مدعاة للاطمئنان على صحة النص ومطابقته للأصل[١].

ويشير جار الله بن فهد إلى أهم كتب الحديث التي كانت تدرس بقوله: كان موطأ الإمام مالك وصحيحا البخاري ومسلم وجامع الترمذي من أظهر المصنفات الحديثة التي يغلب تدريسها في مجالس السماع[٢].

ولم يقتصر استخدام طريقة السماع على حفظ نصوص الحديث، بل كان السماع من الطرق التي اتبعت في تدريس العلوم الأخرى كعلوم القرآن والفقه وأصوله وعلوم اللغة العربية وآدابها، ولا بد لمن يتولى القراءة بين يدي الشيوخ من توفر صفات ومميزات معينة لكي يقوم بما أوكل إليه على الوجه الأكمل، ذلك أن مهمة القارئ في الحلقة هي إيصال النص- بقراءته قراءة صحيحة- إلى الشيخ والى السامعين على حد سواء، ولذلك فلا غرو أن نجد الاهتمام باختيار القارئ الذي يتميز بالنباهة والفصاحة وجهارة الصوت[٣] وأن يكون على دراية بأنواع الخطوط حتى يستطيع تجنب الخطأ أو التصحيف، كما أن سعة ثقافة القارئ تبعده عن الخطأ في نطق بعض الألفاظ التي تعرض له أثناء قراءته[٤].

ثانياً: القـــراءة:

كان طلب العلم يبدأ عادة منذ مرحلة مبكرة وينخرط فيه الصغار إلى حلقات العلم ويبدأ بالقراءة المستمدة من لفظها، فهي قراءة الطالب على الشيخ حفظاً من قلبه أو من كتاب ينظر فيه، أو قراءة غيره وهو يسمع، وتعتبر القراءة- بهذا المفهوم- سواء أكان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أم يمسك أصله[٥].

---

(١) البغدادي - الخطيب - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع- ج١- ص٢٧٥- رفعت عبد المطلب توثيق السنة في القرن الثاني الهجري- الطبعة الاولى- القاهرة- مكتبة الخانجي- ١٤٠٠هـ- ص١٨٥.

(٢) جار الله بن فهد - نيل المنى- م ١- ص٨٦- ٩١- ١١٥.

(٣) المصدر السابق- ص٨٦- ١٤٩٧.

(٤) ابن فرحون- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب- ج٢- ص٢٥٧.

(٥) جار الله بن فهد - نيل المنى- ص٤٨- ٢١٧- القاضي عياض- الألماع- ص٧٠.

وعلى كل حال فإن علماء الحديث يفاضلون بين تلك الصور فأعلاها تلك التي تعتمد على الأصل المكتوب سواء من جانب الطالب القارئ أو الشيخ المستمع[١] فقراءة الطالب من كتاب في حين يكون الشيخ ممسك أصله أثبت في الرواية لاعتماد الشيخ –في تقويمه لقراءة الطالب– على حاستي السمع والبصر[٢] كما يتم من خلال هذه الصورة مقابلة نسخة الطالب بأصل الشيخ.

ويذهب معظم علماء الحديث إلى أن القراءة دون السماع فهي تليه في المرتبة الثانية وإذا أراد الطالب أن يؤدي علماً أخذه عن شيوخه بهذه الطريقة فعليه أن يوضح صورة أخذه فيقول: "قرأت على الشيخ وهو يسمع" إذا كان القارئ ، وذهب بعض العلماء إلى جواز استعمال الصيغ الخاصة بالسماع كحدثنا، وأخبرنا، وسمعت، لأنهم يساوون بين القراءة والسماع، بينما منع آخرون استعمال هذه الصيغ على إطلاقها، بل لا بد من تقييدها بلفظة القراءة فيقول الراوي: حدثنا الشيخ قراءة عليه، أخبرنا قراءة عليه، أو سمعت من الشيخ قراءة عليه[٣] وقد أخذت المدارس الوقفية تنتشر في المدينة المنورة في العهد العثماني لتودي دورها الفعال المعرفي الثقافي، ومن ابرز المدارس الوقفية التي أنشئت في العصر العثماني المدارس التالية:

١/ مدارس قرة باش:

أنشئت عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م في حارة ذروان في الجهة الجنوبية للمسجد النبوي الشريف في زقاق غير نافذ سمي باسمها، ومؤسسها القاضي الذي عينته الدولة العثمانية في مكة المكرمة، وتتكون من عشرين غرفة من طابقين في وسطها فناء فيه نافورة وبعض النباتات وتتسع لخمسة وعشرين شخصا، ومن الذين سكنوا ودرسوا بها الحاج محمد الأرنودي حين قدم إلى المدينة المنورة مجاور بها سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٦م.[٤]

---

(١) السيوطي–جلال الدين–تدريب الراوي في تقريب النواوي–ج١– القاهرة– دار الكتب الحديثة– د.ت– ص١٢.

(٢) جار الله بن فهد – نيل المنى– ص٤٨– ٣١١– القاضي عياض– المصدر السابق– ص٧٦.

(٣) ابن الصلاح– مقدمة في علوم الحديث– ص١٢٢– ١٢٣– الصالح – صبحي – علوم الحديث ومصطلحه– الطبعة الاولى– بيروت– دار العلم للملايين– ص٩٥– نيل المنى– ص٣٦.

(٤)حجار– طارق عبد الله– المدارس الوقفية في المدينة المنورة– جامعة أم القرى بالتعاون– مكة المكرمة– ص١١٢.

٢/ مدرسة الخياري:

تبين لنا المصادر التاريخية للمدينة المنورة أن المؤسس لها الشيخ عبدالرحمن بن على الخياري ثم خلفه في إدارتها والتدريس بها إبراهيم الخياري، وارثا التدريس بها عن والده، وكان لهذه المدرسة مخصص مالي يأتيها من مصر، أطمع أحد العلماء الغرباء فاستولى عليها، مما دفع بالخياري إلى الرحيل إلى القسطنطينية مطالبا بعودتها، فعادت له بربحها المادي، واجتمع الخياري بشيخ الإسلام في القسطنطينية. (١)

٣/ مدرسة ملاذ الخلافة:

هذه المدرسة قد ابتدأ البناء فيها بدون علم محمد علي باشا أو حكومته على غير العادة المتبعة على الرغم من أن مصر كانت تتكفل بإرسال معظم الفنيين والعمال وتقوم بتدبير الأموال اللازمة للإنشاءات والتعمير والترميم بشكل عام هذا بالإضافة على تجهيز وإرسال المواد والآلات التي تكفي لتلك الأعمال فقد بعث المسئولون بالمدينة المنورة ومنهم المهندس سيد عبد الرحيم أفندي إسماعيل أغا ناظر خزينة المدينة ببعض المعلومات عن الأعمال المعمارية التي تم إنجازها والتي جرى تنفيذها وكان من بينها أنهم شرعوا في بناء مدرسة ملاذ الخلافة، وتعجب محمد علي باشا من أمر الشروع في بناء هذه المدرسة دون إخباره بأمرها فأرسل إلى مهندس الأبنية متعجبا ويسأله في الوقت نفسه عن هذا الموضوع، وهل هناك رسالة أو أمر سلطاني أرسل لمصر ولم يعرفه؟ وهو سؤال استنكاري كما يبدو، وتضمنت رسالة محمد علي طلب الأمر السلطاني إذا كان بيديه بأن يرسله فورا إلى مصر وإذا لم يكن معه أو تركه بقصره في استانبول فعليه بالكتابة إلى وكيله هناك لإرسال هذا الأمر الخاص بالمدرسة. (٢)

٤/ مدرسة محمد أغا (دار السعادة):

مؤسسها محمد أغا، وهي من المدارس الوقفية التي أنشئت لاحتياجات طلاب العلم بالمدينة المنورة وتولى التدريس بها الشيخ يوسف أفندي بعد وفاة صهره فيض الله أفندي الرومي، ولم

(١) ناجي الأنصاري – التعليم في المدينة المنورة – ص ٢٩٤.

(٢) الحلواني– سعد – تعمير المدينة المنورة – ص ٢٢.

تزل في أولاده إلى أن انتزعها منهم بالفرمان السلطاني السيد جعفر البرزنجي محتجا بأنها كانت لوالده السيد حسن برزنجي. (١)

٥/ مدرسة حسين أغا:

أقام هذه المدرسة حسين أغا الناظر السابق للتكية المصرية بالمدينة المنورة، وذلك عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م وقد وتوجد هذه المدرسة في حي الأغوات وهي مطلة على ساحة صغيرة في نهاية زقاق غير نافذ، والمبنى أقيم كمدرسة لتعليم علوم الدين، ولم تكن كمكتب للصبيان (كتاب) حيث أن علي بن موسى حدد مكاتب الصبيان، وقد تبين أن بعضا كان ملحقا بسبيل "سبيل ماء" وذلك على نمط السبيل والكتاب في العمارة المملوكية بمصر.(٢)

٦/ مدرسة الشفاء:

أسسها شيخ الإسلام فيض الله الهندي عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م, وسبب تسميتها بالشفاء أنه رحمة الله عليه عندما زار المدينة المنورة, وعاد إلي بلده مرض مرضا شديدا فنذر إن شفاه الله أن يؤسس مدرسة في المدينة المنورة وبفضل الله تعالي شفي وبعد ذلك أرسل الأموال اللازمة لإنشائها في حارة (الشونة) ذروان, وتضم المدرسة ٢٤ غرفة واحدة للناظر, وأخري للمكتبة, وثالثة لحافظ الكتب (أمين المكتبة), ورابعة للمدرسين, وخامسة للتدريس, وست عشرة غرفة لإقامة الطلاب بالإضافة إلي مسجد ومطبخ.(٣)

٧/ مدرسة قايتباي:

وضع أساس البناء لمدرسة قايتباي في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م، وقد ظهر اتجاه عند وجوه القوم في المدينة المنورة لتوسعة المدرسة بضم رباط كان ملاصقا يسمى رباط البساطية أو البساطي، فقد بعث المهندسون وزعماء المدينة في ١٣ من جمادي الثانية سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م برغبتهم واستحسانهم إضافة المكان المعروف برباط البساطية القريب من المدرسة حيث كان خربا من زمن بعيد ويتم به توسعة المدرسة، وقد

---

(١) طارق حجار- المدارس الوقفية في المدينة المنورة - ص ١١٣.

(٢) ناجي الأنصاري- التعليم في المدينة - ص ٢٩٩.

- شمس الدين سامى: قاموس الأعلام باللغة التركية- استانبول- ١٣١٤- ج٥ ص٣٤٦٤.

(٣) طارق حجار- المدارس الوقفية في المدينة المنورة - ص ١١٣.

أرسلت بذلك تحريرات وفتاوى إلى الباب العالي والصدر الأعظم، وإزاء هذه المكاتبات التي أرسلت إلى استانبول، وبعد عرضها على السلطان العثماني محمود الثاني في رجب سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م تمت موافقته على ضم الرباط إلى المدرسة وإتمامها في أقرب وقت. (١)

٨/ المدرسة الرشدية:

أسستها الحكومة العثمانية في المدة الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى وكان إقبال أهل المدينة عليها ضعيفا جدا وذلك للأسباب الآتية: (٢)

- لأن الدراسة فيها كانت باللغة التركية غير اللغة التي يعرفها أهل المدينة.
- بسبب ما قام من دعاية ضدها من أن طلابها سيتحولون على عسكر بعد التخرج.

٩/ مدرسة دار الحديث (بشير آغا):

أنشئت هذه المدرسة في عهد الخلافة العثمانية من قبل أحد المحسنين لا يعرف من هو، ولا متى أسست، وكان معظم المنشئين لمثل هذه المدارس من أصحاب السلطة من السلاطين العثمانيين أو من الوزراء، أو كبار موظفي الدولة أو من الأثرياء ، وعندما جدد بشير أغا هذه المدرسة أوقف ما يملكه من عقار جوار باب السلام لهذه المدرسة حسبة لله وطلبا لمرضاته وخدمة لطلبة العلم من ديار الروم المجاورين، وشرط لمهنة التدريس لمن أصله من تلك الديار، وخصص هذه المدرسة لتدريس العلوم الشرعية وفق جدول محدد بحيث تدرس علوم الحديث النبوي خمسة أيام من كل أسبوع ويوم للتفسير ويوم لأصول الفقه، كما وضع لها نظاما دقيقا ورتب لها أوقافا من ممتلكاته وبساتينه بالشام وتركيا والتي كانت تأتي غلالها من أمناء الصرة (أمين الصندوق)، كل عام مع المحمل وذلك لتأمين حاجة الطلاب والمعلمين والموظفين. (٣)

وهكذا فقد لعبت المدارس دوراً هاماً في حركة التعليم وحافظت على حيويته وعلى نشره ولقد تطورت ونمت وازدادت أعداد المدارس والكتاتيب في العصر العثماني ولتأكيد هذا

---

(١) سعد الحلواني- تعمير المدينة المنورة - ص٢٢.

(٢)عثمان – حافظ – صور وذكريات عن المدينة المنورة – نادي المدينة المنورة الأدبي – المدينة المنورة – ١٤٠٣هـ – ص ١٤.

(٣) عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل- ج ٥ – ص ٣٩ .

حمد الجاسر: رسائل فى تاريخ المدينة–دار اليمامة – الرياض –١٣٩٢–ص٥٢.

الاهتمام والعناية المميزة في نشر التعليم من قبل السلطة العثمانية حتى سقوطها توضحها الإحصائية التالية للتعليم في المدينة المنورة مستقاة من الأعداد الخمسة لسالنامة ولاية الحجاز:

١. بلغ عدد المدارس الدينية بالمدينة المنورة في العقد الأول من القرن ١٤ هـ ١٧ مدرسة وذلك فيما بين عامي ١٣٠٥/١٨٨٧م-١٣٠٩هـ/١٨٩١م.

٢. بلغ عدد المدارس الرشدية ٥ مدارس، وعدد المدرسين ٣-٤، وعدد الطلاب ٢٥-٥٥، وأغلبهم من الأتراك وذلك بين عامي ١٣٠١هـ/١٨٨٥م- ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.

٣. عدد مدارس الخط بين عامي ١٣٠١هـ/١٨٨٥م- ١٣٠٣هـ/١٨٨٧م مدرسة واحدة وعدد الطلاب ٤٥ طالبا.

٤. وبلغ عدد الكتاتيب المجيدية طوال الفترة من ١٣٠١هـ/١٨٨٥م- ١٣٠٩هـ/١٨٩١م ١٣ كتابا، وعدد امدرسين ١٢ مدرسا، وعدد العرفاء ١٢ عريفا، وعدد الطلاب ٣٥٠ طالبا[١].

وبدأت الحكومة العثمانية في تأسيس المدارس التحضيرية والابتدائية في حوالي عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م, وأول مدرسة أسست بالمدينة هي " المدرسة الرشيدية " نسبة لوالى الحجاز رشدي بك وتحتل هذه المدرسة احد بيوت أوقاف الحرمين الشريفين الموجودة قرب المسجد النبوي الشريف, ثم أسست المدارس التحضيرية من أربعة فصول , والمدارس الابتدائية[٢]. ففي عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م تم تأسيس مدرسة إعدادية وهى بمستوى المدارس الثانوية , كانت بباب المجيد في شمال شرقي المسجد النبوي , وكانت ذات خمسة فصول ثم أضيف اليها الفصل السادس باسم "احضارى فصلى جامعي" وهو بمستوى السنة التوجيهية[٣] .

وفى عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م أنشأ العثمانيون داراً للمعلمين وكان مقرها الساحة ومهمتها تزويد المدارس الابتدائية والتحضيرية بالمدرسين, أما لغة الدراسة في هذه المدارس, فقد كانت في المرحلة الابتدائية والتحضيرية اللغة التركية بينما كانت المدارس الإعدادية, ودار المعلمين تجمع بين اللغتين العربية و التركية , ولتشجيع الالتحاق بدار المعلمين كانت الحكومة العثمانية

(١) بن سالم- المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري- دار المنار للنشر والتوزيع- القاهرة- ١٩٩٣- ص ص (١٠٧- ١٩٨).

(٢) عبد الباسط بدر – التاريخ الشامل – ص ٩٦.

(٣) بن سالم – المدينة المنورة في القرن الرابع عشر – ص ٨٦.

تدفع للطالب مكافأة شهرية قدرها ثلاثة ريالات مجيدية [١]. وهناك الرحالة الروسي المسلم عبد العزيز دولتشين الذى زار المدينة وقدر عدد المؤسسات التعليمية بالمدينة المنورة بسبع عشرة مدرسة دينية تضم قرابة ٢٥٠ تلميذاً , وجميع المدارس الدينية تشكل أوقافا تركية بوجه الحصر, ويؤمن لها دخل معين يجرى إنفاقه على المعلمين وعلى منح التلامذة النقود لأجل الطعام, وأغنى المدارس الدينية مدرسة المحمودية حيث يتقاضى التلميذ ليرة تركية واحدة في الشهر, وفي المدارس الباقية ينال التلميذ بالمتوسط كل شهر مجيديتين, وأما المقيمون في مدرسة قازان فعلى نفقاتهم [٢]. وكانت الحكومة العثمانية تطلب كل عام أربعة من خريجي المدرسة الإعدادية لابتعاثهم , ولكن الإقبال على ذلك كان ضئيلا جداً ... وقبيل الحرب زاد الإقبال على التعليم و الابتعاث وكان المتخرجون من المدرسة الإعدادية يبتعثون إلى المدارس السلطانية باستانبول أو دمشق أو القدس.

ولم تجد المدارس في العهد العثماني أول الأمر الإقبال من أهل المدينة المنورة, فقد كانت الفكرة السائدة أن هذه المدارس تؤدى إلى إلحاق أبناء المدينة بالعسكرية ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن تلاشت تدريجيا , وحصل الإقبال على الانتساب للمدارس[٣].

وعلى الرغم من وجود بعض المدارس التعليمية في أواخر عهد الحكومة العثمانية في المدينة المنورة حينذاك فإن استفادة المجتمع المدني منها كان محدودا، وذلك للأسباب التالية:[٤]

١. هناك إحساس من قبل أهل المدينة بشيء من الريبة في أمر هذه المدارس فلم تجد المدارس في العهد العثماني أول الأمر إقبالا من أهل المدينة المنورة، فقد كانت الفكرة السائدة أن هذه المدارس تؤدي إلى إلحاق أبناء المدينة بالعسكرية.

---

(١) ياسين الخياري – مرجع سابق صـ١٧٨ .

(٢) يقيم ريزوقان : الحج قبل مئة سنة " الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي, رحلة الضابط الروسي عبد العزيز دولتشين إلى مكة ١٨٩٨– ١٨٩٩, بيروت, دار التقريب بين المذاهب الإسلامية, ١٩٩٣م, صـ١٧٠ .

(٣)عثمان حافظ : مرجع سابق , ص١٦٧/ طارق حجاز – المدارس الوقفية في المدينة – ص١٦٩.

(٤) ناجي الأنصاري– التعليم في المدينة المنورة – ص ٣٤.

٢. كانت لغة الدارسين في هذه المدارس– الابتدائية والتحضيرية– اللغة التركية, والمدرسة الإعدادية ومعهد المعلمين تجمع بين اللغتين العربية والتركية، مما أخاف أهل المدينة على أبنائهم من التتريك، فكان هناك عزوف عند بعضهم بسبب اللغة.

٣. كان من الطبيعي أن لا يستمر هذا النوع من التعليم الذي يتجاهل لغة المواطنين.

٤. حينما بدأ الأهالي في الاطمئنان إلى هذه المدارس، شبت الحرب العالمية الأولى وأغلقت جميع المدارس بالمدينة في حوالي ١٣٣٤هـ/١٩١٥م.

٥. في الفترة التي اندلعت فيها الحرب العالمية، أسست الحكومة العثمانية مديرية عامة للمعارف نظارة مربوطة باستانبول, فلم يتحقق الغرض الذي أنشئت من أجله، فقد تحول الحكم بالمدينة "للقوة السفرية" بقيادة فخري باشا، فكان الحكم بالمدينة عسكريا،وبدأ تهجير أهالي المدينة لدمشق، وبعضهم سافر إلى مكة المكرمة وغيرها.

والجدول التالي يوضح بعض أسماء لـ ٣٣ مدرسة من المدارس التي كانت موجودة في العصر العثماني وتلك المدارس هي كالتالي: (١)

مسلسل	أسم المدرسة	المؤسس	الموقف
١.	الشيرازية	إبراهيم الرومي	جنوب المسجد النبوي
٢.	اليازكوجين	يازكوج أحد أمراء الشام	شرقي الحرم
٣.	الشهابية	الملك شهاب الدين بن أيوب	الركن الجنوبي
٤.	الأركوجية	لا يعرف	غير معروف
٥.	الأزكحية	لا يعرف	غير معروف
٦.	الجوبانية	جوبان أتابك العساكر	بين بابي السلام والرحمة
٧.	الغيائية	الملك منصور غياث الدين	بالقرب من باب الرحمة
٨.	الكليراجية	السلطان شهاب الدين أحمد	بالقرب من باب الرحمة
٩.	الباسطية	القاضي عبد الباسط	غرب المسجد النبوي
١٠.	الزمنية	شمس الدين بن الزمن	غرب المسجد النبوي
١١.	الأشرفية	السلطان الأشرف قايتباي	بين بابي السلام والرحمة
١٢.	المزهرية	الزيني كاتب السر	دار العشرة
١٣.	الرستمية	رستم باشا	حارة الأغوات
١٤.	قرة باش	قرة باش	ذروان
١٥.	الخياري	عبد الرحمن ابن علي	غير معروف

(١) حجار– طارق عبد الله عبد القادر (١٤٢٢هـ), المدارس الوقفية في المدينة المنورة– دراسة تاريخية وصفية– ص ص (١٢١– ١٢٣).

١٦.	الشفاء	شيخ الإسلام فيض الله	ذروان
١٧.	الصاقزلي	أحمد إبراهيم الصاقزلي	شمال المسجد النبوي
١٨.	كيرلي	أحمد أفندي كيرلي	غير معروف
١٩.	بشير أغا	بشير أغا	ملاصقة لباب السلام
٢٠.	الحميدية	السلطان عبد الحميد الأول	بداية حارة الساحة
٢١.	المحمودية	السلطان محمود خان	بين بابي السلام والرحمة
٢٢.	كيلي ناظري	مصطفى كيلي ناظري	لا يعرف
٢٣.	حسين أغا	حسين أغا كوزل أغا	حارة الأغوات
٢٤.	الإحسائية	مصطفى بن محمد	حارة الأغوات
٢٥.	الباركوجية	باركوج التركي	دار ريطة
٢٦.	الكشميرية	لعلي الدين صاحب البنجابي	زقاق الشونة
٢٧.	القازلية (القازانية)	عبد الستار القازاني	زقاق جعفر
٢٨.	العرفانية	محمد عارف مصطفى توقادي	باب المجيدي
٢٩.	الخاسكية	خاسكي سلطان	باب العنبرية
٣٠.	النظامية	عبد الباقي اللكنوي	حوش فواز
٣١.	أمان الله خوجة	أمان الله خوجة البخاري	خارب باب المجيدي
٣٢.	نورالدين نمنكاني	نور الدين نمنكاني	سقيفة شيخي

كما أنشئت دار المعلمين في العهد العثماني (حوالي عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) لتزويد المدارس بالمعلمين وكانت الدراسة آنذاك باللغتين العربية والتركية أما المدارس التحضيرية الابتدائية والإعدادية ، فكانت جميعها باللغة التركية ن ثم أدخلت اللغة العربية بعد زمن ليس بالقصير.(١)

مشروع جامعة صلاح الدين الأيوبي:

وهي أكبر مؤسسة علمية قررت السلطة العثمانية تأسيسها لتكون منبراً من منابر المعرفة الإسلامية وأن تصبح من ضمن الجامعات في العالم العربي في بغداد ودمشق وصنعاء والمدينة المنورة ونص الأمر السلطاني من السلطان رشاد بن عبدالعزيز بتاريخ ١٣١٣هـ/ ١٩ ابريل ١٩١٣م أن تتألف هذه الجامعة من ثلاث كليات هي ١- كلية الدراسات الإسلامية ٢- كلية الزراعة ٣- كلية التجارة وارتباطها بهيئة علمية عليا يكون مقرها باسطنبول ولها مجلس أعلى يتكون من عشرة أعضاء من بينهم وزير الأوقاف رئيساً وتسعة أعضاء من

(١) بلول – مختار محمد – المدينة المنورة درة المدائن- دار البلول للنشر – الرياض – ١٤٢١هـ – ص ٢١٨

العلماء البارزين المشهود لهم بعلمهم وتم تعيين الشيخ عبدالعزيز جاويش احد علماء مصر البارزين مديراً لهذه الجامعة[١] وبرفقته شكيب ارسلان[٢] وعبد القادر الجزائر[٣] وانشئت في بداية شارع العنبرية للقادم للمدينة الموصل إلى المسجد النبوي الشريف وتم تصميم المباني بما يتناسب فن العمارة الإسلامية وبلغت مساحتها الإجمالية ستة عشر الف ذراع معماري مربع يحيط بها حديقة كبيرة تبلغ مساحتها الإجمالية مائتين وستة وثمانين زراع معماري خصص منها جزء لإجراء التجارب الزراعية الخاصة بكلية الزراعة[٤].

ولكن التطورات السياسية التي حلت بالعالم تسببت في عدم الاستمرار في إنجاز هذا المشروع التعليمي العظيم.

الألقاب العلمية:

عرفت الحياة العلمية الإسلامية مقاييس أدق لبيان درجة العالم ومكانته في علمه، ومدى إجادته له وحجته فيه، تلك هي الألقاب العلمية. وكان مؤرخي مدرسة المدينة لما شاع في زمانهم من ألقاب علمية تطلق على العلماء والفقهاء والمحدثين وتاورد لنا هذه الألقاب التي كانت تطلق على علماء زمانهم.

والألقاب العلمية مصطلحات تداولها العلماء فيما بينهم ليعبروا بها عن تفاوت المكانة العلمية بين عالم وآخر، وهي لا تعطى بطريق الامتحان العام أو الخاص، بل إن مكانة العالم في علمه والتي

---

(١) ولد في الاسكندرية من أصل تونسي وأم تركية رائد التربية الحديثة له محاولات في إصلاح التعليم تمتع بمهارة صحفية وابداع أدبي تنقل بين المانيا وتركيا توفى عام ١٩٢٩م أنظر ترجمته / أنور الجندي – عبدالعزيز جاويش – القاهرة– ١٩٦٥م/ الزركلي – الاعلام – ج ٤ – ص ٨٧.

(٢) شكيب ارسلان مفكر وأديب ومؤرخ مميز بلغت بحوثه ومقالاته المئات كما نظم عشرات القصائد في المناسبات اتسم اسلوبه بالفصاحة وقوة البنيان اطلق عليه أمير البيان/الزركلي – الاعلام –م ٣ – ص١٧٣/١٧٤/١٧٥ .

(٣) الأمير عبدالقادر محي الدين مصطفى الحسين تنقل في عدد من الدول وتألق كزعيم سياسي ديني وأديب وشاعر أخذ مكانته بين العماء واستقر بدمشق حتى وفاته عام١٣٠٠هـ/ الزركلي– الاعلام– م٤ – ص٤٥/٤٦.

(٤) ابن دهيش– عبداللطيف – مشروع جامعة صلاح الدين – مجلة المؤرخين العرب – العدد التاسع – ١٤٢٢هـ – ص٦٥– ٧٠.

يكونها لنفسه ويشتهر بها في المجتمع وبين المشتغلين بالدراسة والبحث هي التي تهيؤه لحمل اللقب العلمي الذي يناسبه ويدل على قدره.

إن الدارس لتراجم العلماء ليلاحظ أن الكثير منهم لقب بأكثر من لقب ونلاحظ أن معظم الألقاب العلمية التي عرفتها الحياة العلمية في مكة المكرمة كغيرها من أقطار المسلمين تخص العلوم الشرعية وتفاوت مكانة العلماء في هذا الفرع أو ذاك من تلك العلوم وذلك لأن تلك الألقاب مصطلحات تعارف عليها علماء هذه العلوم وخاصة علماء الحديث فلديهم ألقاب تتميز بالدقة في معظم الأحيان يطلقونها على كل من وصل إلى درجة معينة في هذا العلم.

ونود أن نشير هنا إلى أننا سنأخذ في الاعتبار –عند ترتيبنا لهذه الألقاب– شرف العلم، فنقدم منها ما يخص القرآن الكريم أولاً ثم الحديث وهكذا...

١– المقرئ:

هو من له الإحاطة لعلم القرآن وتجويده وذلك بأن يكون عالماً بالقراءات عارفاً بقواعدها نظرياً مستطيعاً تطبيقاً تلاوة، كما لا بد أن يكون لديه علم بتفسير القرآن ومعانيه وإعرابه[١]. ولقد ذكر لنا التراجم عدد كبير من مقرئ القرن العاشر والألقاب التي أطلقت عليهم.

وُجد عدد كبير من العلماء من غلب هذا اللقب على ألقابهم الأخرى وذلك مثل المقرئ واشتهر بالصلاح والتقوى .

٢– الحافظ:

وهو مشتق من الحفظ والمشهور أنه من ألقاب المحدثين وهو أعلى الألقاب لديهم، ولكن قد يستخدم في العلوم الأخرى بالنظر لاشتقاقه اللغوي العام[٢].

---

(١) عثمان بن سعيد الداني– التيسير في القراءات السبع– استانبول– جمعية المستشرقين الألمانية– ١٩٣٠م– ص هـ من المقدمة– ص٣– انظر كذلك علي الضباع– ارشاد المريد شرح الشاطبيه– القاهرة– مصطفى البابي الحلبي– ١٣٤٩هـ– ص٣– ٤.

(٢) عرفت العلوم الأخرى – عدا الحديث– هذا اللقب– ولكن الطريقة التي يرد فيها هذا اللقب تحدد لنا المقصود منه فإذا وصف أحد الرجال بالحفظ دون تقييد انصرف الى مفهومه عند المحدثين ولذلك فلا بد من تقييده بالعلم المراد حتى لا يفهم منه المعنى المعروف عند المحدثين– الآبار– التكملة– ج٢– ص٥٤٢.

اختلف المحدثون في تعريفهم للحافظ، فقد سُئل الحافظ ابو الحجاج المزي[١] عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز أن يطلق عليه لقب الحافظ فقال "من كان الرجال الذين يعرفهم أكثر من الذين يجهلهم"[٢].

عاش في هذا العصر عدد كبير من العلماء في علم الحديث وكانوا من الحفاظ، ومن أشهرهم الشيخ محمد بن سليمان الكردي فقيه الشافعية ولد بدمشق ونشأ وتوفى بالمدينة. فقد كان بارعاً في غريب الحديث، عارفاً بعلله واقفاً على رجاله، ووصفه معاصروه بأنه أعلم أهل طبقته بصناعة الحديث وأبرعهم في ذلك[٣].

٣- المحدث:

اختلف السلف في تعريف المحدث، فعلماء الحديث في العصور الاولى عرفوه بالحد الأعلى له، فالمحدث عندهم مرادف للحافظ، أما المتأخرون فالمحدث عندهم أقل رتبة من الحافظ فهو "من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواته واطلع على كثير من الرواة والمرويات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه حظه واشتهر في ضبطه"[٤] .

ونلاحظ أن هذا التعريف للمحدث يبعده عن مرادفته للحافظ فهو –أي المحدث– من اطلع على كثير من الرواة والمرويات في عصره، بينما لا يصل إلى درجة الحافظ إلا من عرف شيوخه وشيوخ شيوخه فمن قبلهم من طبقات المحدثين بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله[٥]

---

(١) هو ابو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن– ولد في حلب سنة ٦٥٤هـ مهر في الحديث ومعرفة رجاله وكان محدث الديار الشامية في عصره– له مؤلفات عدة في علوم الحديث ورجاله– توفي في دمشق سنة ٧٤٢هـ. ابن خليفة– كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون– ج٤– ص١٨٦.

(٢) الونشريشي– احمد بن يحيى– المعيار المعرب– ج١١– اشراف محمد حجي– بيروت– ١٤٠١هـ– ص٦.

(٣) الزركلي – الاعلام – ج ٧ – ص٢٣– ابن طولون– مفاكهة الخلان– ج٢– ص١٧– المرادي– محمد خليل– سلك الدرر في اعيان القرن الحادي عشر– ج٤– مطبعة المثنى– بغداد – ١٣٠١هـ– ص١١١.

(٤) القاسمي – محمد جمال الدين – قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث– تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار– الطبع الثانية– القاهرة– دار إحياء الكتب الحلبية– ١٣٨٠هـ– ص٧٧.

(٥) عبد الوهاب عبد اللطيف– المختصر في علم رجال الاثر– الطبعة الثامنة– القاهرة– دار الكتب الحديث– ١٣٨٦هـ– ص٦٩.

وهكذا يتبين لنا من حد المحدث والحافظ أنهما متقاربان لا مترادفان، وأن طالب العلم يحصل على لقب محدث في مراحل طلبه للعلم، والبعض منهم يواصل تحصيله ويتوسع في الطلب حتى يصل إلى مرحلة الحفظ ويصبح في عداد الحفاظ ولذلك نستطيع القول إن كل الحفاظ كانوا في بعض مراحل طلبهم.

ويعتبر من المبرزين في علم الحديث إمام الحنفية المحدث شهاب الدين احمد بن محمد الحسني البخاري[١]

٤- المسند:

وهو اقل الألقاب عند المحدثين درجة، ويطلق على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به، أم ليس له إلا مجرد روايته.

وهذا اللقب يحصل عليه طالب العلم في بدايات تحصيله العلمي، إذ الغالب أن يبدأ الطالب في مراحل تحصيله الأولى في تكوين حصيلة من النصوص الحديثة تكون متعددة في دراساته المستقبلية وذلك لأن دراسة العلوم الشرعية تعتمد على نصوص الكتاب والسنة، ولهذا فإن المسند يطلق عليه في بعض الأحيان، الطالب أو المبتدئ أو الراوي[٢]

ولم نجد أن هذا اللقب قد أطلق على شخصية علمية من الشخصيات التي ترجمت لعلماء هذه الفترة .

٥- الإمام:

الإمام في اللغة ماخذو من أمّ القوم وأمّ بهم أي تقدمهم، فهو "مائُتم به من رئيس وغيره"[٣] ومعناه القدوة ولذلك سُمي من يتقدم الناس في الصلاة إماماً لأن المأمومين يتبعونه ويقتدون به[٤].

واستناداً إلى المعنى اللغوي للإمامة وهو القدوة، فقد استعملت لفظه (إمام) في الحياة العلمية فصارت تطلق على كل عالم برز في علم أو أكثر وكان قدوة في العلم أو العلوم التي يحملها،

---

(١) المصدر السابق- ص٢٩.

(٢) القاسمي – محمد جمال الدين – قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث- ص٧٦.

(٣) ابن منظور- لسان العرب – ج١- مادة: أمم – ص٤٦.

(٤) ابن خلدون- تاريخه- مجلد ١- ص٣٣٩- حسن الباشا- الألقاب الاسلامية- ص١٦٦.

بحيث يصبح المرجع لعلماء عصره يرجعون إليه في حل المسائل العلمية في مجال تخصصه. وقد ذكر لنا السمهودي كثيراً من العلماء الذين أطلق عليهم هذا اللقب العلمي.

فلقد حمل هذا اللقب عدد كبير من العلماء في هذا العصر من مختلف التخصصات العلمية، فممن كانت له الامامة في علم القراءات والتجويد... الإمام الشيخ المقريء الصالح شهاب الدين احمد بن محمد الكيلاني (ت٩٣٨هـ/١٥٣٢م) اشتهر بعلمه وورعه والمامه بالقراءات على الأحرف السبع وتصدر المقرئين وإمام المجودين[١].

٦- الفقيه:

الفقه لغة: العلم بالشيء والفهم له[٢] وهو عند الأصوليين "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية فالفقيه إذاً هو العالم بالأحكام الشرعية[٣].

٧- الشيخ:

هذا اللقب من الألقاب التي اختص بها العلماء ويختلف مفهوم هذا اللقب باختلاف سياق وروده فطالب العلم يطلق على من درسه بأنه شيخه، دون اعتبار للتخصص الذي درسه عليه، وهو بهذا المفهوم لا يدل على مكانة علمية لأنه يغلب عليه صفة العموم، ورد هذا اللقب -كلقب خاص- مضافاً إلى علماء في علم معين، فهو بهذا يدل على رئاسة علمية، حصل عليها بعض العلماء لشهرتهم في هذا العلم أو ذاك. وقد أطلقه مؤرخي المدينة على بعض علماء عصرهم عندما أرخوا لهم في تراجمهم[٤].

٨- المدرس:

كما وجدت بالإضافة لما سبق، ألقاب حملها العلماء وأشهرها مدرسين أضيفت إلى ألقابهم الأخرى ولكنها في حقيقتها لا تدل على درجة علمية معينة، فقد تدل على التخصص العلمي كاللغوي والمؤرخ والمتكلم بعلماء العربية، وعلى الرغم من ارتباط هذا اللقب بعلماء العربية، ثم

---

(١)جار الله بن فهد – نيل المنى- م ١- ص٩٩.

(٢) ابن منظور- لسان العرب- ج١٠- ص٢١٣.

(٣) عبد العزيز – عمر – التعريف بالفقه- بحث نشر في مجلة البحوث الفقهية المعاصرة- الرياض- العدد الاول- السنة الاولى- ١٤٠٩هـ- ص١٧٣.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى – م ٢ – ص ٨٦.

انتقل هذا اللقب إلى المؤدبين، فأصبح المؤدب يلقب بالمدرس[١] ولكون المؤدبين –غالباً– من علماء العربية فعمم هذا اللقب ليشكل كل من يمارس عملية التدريس.

أساليب التقويم:

عرفت الحياة العلمية المكية أساليب متعددة لتقويم التحصيل العلمي لطالب العلم، ولا شك أن هذه الأساليب تختلف في قيمتها وأهميتها بالنسبة لتحديد مكانة العلم والعالم وإتقانه لعلمه وبراعته فيه. وتحدثنا كتب المؤرخين[٢] أنه لم يكن في نظام التدريس في الحرم المدني امتحان أو شهادات دراسية يحصل عليها طلبة العلم لمعرفة مدى تحصيلهم للعلم، وجلّ ما في الأمر "إجازة علمية" يمنحها الشيخ تلميذه، ليصبح أهلاً للتعليم، وكان علماء الحرم المدني يتبعون في منح هذه الإجازات التقاليد العلمية التي وجدت في المجتمع الإسلامي منذ القرون الأولى للهجرة، وكان هؤلاء الشيوخ في مقام رفيع من إحترام الناس وإجلالهم، وغالباً ما يحصل التلميذ على إجازات عدة من شيوخه.

الإجازات العلمية:

الإجازة مصدر أجاز، وفي القاموس أجاز له سوغ له، واستجاز طلب الإجازة أي الأذن[٣]. والإجازة في الإصطلاح هي عبارة عن اذن الشيخ لتلميذه ليروى عنه مؤلفاته ومروياته عن شيوخه لفظاً أو كتابةً[٤] وأركانها أربعة: المجيز(الشيخ)، والمجاز له(الطالب)، ومادة الإجازة(مؤلفاته ومروياته)، ولفظ الإجازة(عامة أو مخصوصة)، وهذا الركن الأخير إما أن يكون مشافهة أو كتابة[٥]

---

(١) ابن دحيه الكلبي– المصدر السابق– ص٩٢.

(٢) الفاسي– العقد الثمين– النجم بن فهد– اتحاف الورى– العز بن فهد– غاية المرام– – جار الله بن فهد– نيل المنى– النهروالي– الاعلام.

(٣) الفيروز ابادي– القاموس المحيط– الطبعة الثانية– القاهرة– ١٣٧١هـ– ج٢– مادة جاز– ص١٧٦.

(٤) ورد تعريف الاجازة في كتب علوم الحديث– انظر على سبيل المثال: الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية– الطبعة الاولى– القاهرة– دار الكتب الحديثة– د.ت– ٤٦٦– السيوطي– التدريب– ج٢– ص٤٢– صبحي الصالح– علوم الحديث ومصطلحه– ص٩٥.

(٥) جار الله بن فهد – نيل المنى– م ١– ص١٥٤/ احمد شلبي – تاريخ التربية الإسلامية – مكتبة النهضه – القاهرة – ١٩٧٣م –ص٢٠٧.

والإجازة على أنواع حددها علماء الحديث، وأوردوا الآراء حول صحة وحجية هذه الأنواع، تبعاً لتوفر الأسس والقواعد التي وضعوها توثيقاً للسنة وحرصاً على نقلها بين المسلمين كما رآها وسمعها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عمم استعمالها حتى اصبحت تمنح في كل علم أو فن وكانت تدل على المستوى العلمي الهام الذي وصل إليه الطالب بعد أن أخذ من المعرفة والعلوم ما يهيئه إلى إجادة تدريس الكتاب أو الكتب المجاز بها أو رواية الحديث المأذون له في روايتها وقد دخل تعديل في منح الإجازات العلمية في المسجد النبوي الشريف خلال العصر العثماني فأصبح على كل من يرغب في التدريس بالمسجد النبوي الشريف وكذلك المسجد الحرام أن يقدم طلباً لقاضي القضاة وفي أول العام الهجري يعقد قاضي القضاة مجلساً علمياً برئاسته ويحضر كل من مفتى الشافعية ومفتي المالكية ومفتي الحنابلة ويمتحن الطالب كل يوم في درس أو درسين فإذا نجح أعطيت له شهادة التدريس في المسجد النبوي[١] وسنحاول أن نستعرض من هذه الأنواع ما له أمثلة من واقع الحياة العلمية في المدينة في هذا العصر[٢]

إجازة معين في معين:

أي يكون المجاز له معيناً والمادة المجاز بها معينة، وهذه أعلى أنواع الاجازات، لأن أركان الإجازة الأربعة متوفرة فيها وذلك كأن يقول الشيخ لتلميذه: "أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري"(٣). كما ذكر جار الله بن فهد ((حدثت بمؤلف في أرض عرفات واسمه "القول المبرور في فضل عرفة والدعاء بها المأثور" سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م وسمعه وأجزت لهم))[٤]

إجازة معين في غير معين:

وذلك مثل أن يقول الشيخ: "أجزت لك أو لفلان رواية مسموعاتي ومؤلفاتي ومالي من نظم ونثر" دون أن يحدد هذه المسموعات والمؤلفات فينقص هذا النوع من الإجازة ركن من أركانها الأربعة

---

(١) النهروالي – الاعلام- ص ١٨٧.

(٢) فياض – عبد الله – الاجازات العلمية عند المسلمين- الطبعة الاولى- بغداد- ١٩٦٧م- ص٢١.

(٣) الطيبي – الحسين – الخلاصة في اصول الحديث- تحقيق صبحي السامرائي- بغداد- رئاسة ديوان الأوقاف العراقية- ١٣٩١هـ- ص١٠٦- السيوطي- التدريب- ج٢- ص٢٩.

(٤) جار الله بن فهد – نيل المنى- م١ – ص١٥٤.

أو كما أجاز له قاضي الشرق الشيخ محمد بن رقرق لمن حضر مجلسه ومن ضمنهم جار الله بن فهد بالرواية كثلاثيات إبن ماجه وصحيح البخاري وما أنشده من لفظه من نظمه ونظم غيره[١].

ولذلك كان قبول هذه الإجازة من عدمه مثار خلاف بين العلماء فمنعها قوم، وتوسع آخرون فقبلوها[٢].

الإجازة العامة:

وفي هذا النوع من الإجازة لا يحدد الشيخ المجيز لا الشخص المجاز له ولا المادة المجازة، وذلك كأن يقول: "أجزت للمسلمين أو لكل من أدرك حياتي" فهي تنقص ركنين من أركان الإجازات الأربعة، وهي في الحقيقة تمثل انحداراً في القيمة العلمية للإجازة[٣].

أساليب كتابة الإجازات:

الأولى: الإجازة الشفهية، وهذه في الغالب تكون إيجاباً لطلب المستجيز فالمستجيز هو الذي يحدد المادة التي يطلب الإجازة لها، وما على الشيخ في حالة اقتناعه إلا أن ينطق بالإجازة، ويعتبر العلماء الإجازة بالمشافهة أوثق طرق الإجازة[٤] وذلك لأنها تستلزم اللقاء المباشر بين الشيخ وتلميذه[٥].

الثانية: الإجازة التحريرية أو المكتوبة، وقد كانت طريقة كتابة الإجازة في أول الأمر لا تتعدى توقيعاً مختصراً يكتبه الشيخ يثبت أن الطالب المجاز له قد أخذ عنه المادة موضوع الإجازة، والغالب أن يكون هذا التوقيع مثبتاً على الكتب المراد إجازتها، وفي صفحة العنوان منها، وكثيراً ما نجد في المخطوطات القديمة إجازات الشيوخ لتلاميذهم[٦] وقد تتعدد الإجازات حتى تزدحم

---

(١) المصدر السابق- ص٢٣٠.

(٢) القاضي عياض- الالماع- ص٩٠- وما بعدها- ابن الصلاح- ادب المفتي والمستفتي- ص١٣٦- صبحي الصالح- المرجع السابق- ص٩٦.

(٣) جار الله بن فهد - نيل المنى- م١ - ص٨٦- ٩١- ٢٣١- ٣٦٤- ٣٩٢- ٤٣٢/ الشامخ – التعليم في مكة والمدينة – ص١٤.

(٤) محمد الصباغ- الحديث النبوي ومصطلحه- ص١٧٦.

(٥) جار الله بن فهد - نيل المنى- م٢- ص١٦٠.

(٦) صلاح الدين المنجد- اجازات السماع في المخطوطات القديمة- مقالة نشرت في مجلة معهد المخطوطات العربية- المجلد الاول- الجزء الثاني- لسنة ١٩٥٥م- ص٢٣٢.

صفحة العنوان بل قد تكتب في هوامش الكتاب، ولكن هذه الطريقة المبسطة لكتابة الإجازة لم تستمر هي الغلبة في العصور المتأخرة، فقد ظهرت الإجازات المطولة المنفصلة عن الكتب، وأصبح المجال متاحاً للتفنن في اختيار المواد التي تكتب عليها، فأختير لها أفضل الروق وأغلاها كما حرص العلماء على تحسين خطها واستخدام ماء الذهب في كتابتها.

أما الأساليب فقد أغرقوا في تزويق عباراتها وإضفاء الألقاب المتكلفة على من أعطيت له.

ولم يستطع الباحث أن يجد نصاً إجازياً في عصر المؤلف مما جعلنا نعتمد على نص آخر كتب في القرن التاسع الهجري وهي فترة قريبة في العهد بجار الله ويبدو لنا أن نصوص الإجازات قريبة من بعضها ولم تتغير كثيراً.

وسأورد ما يلي نصاً لإحدى الإجازات التعليمية التي أعطاها أحد علماء المدينة المنورة الشيخ الوانوغي لمؤرخ مكة الشيخ تقي الدين الفاسي.

((كان ممن اجتمعت به وذاكرته... القاضي تقي الدين محمد بن الشيخ الحسيب الأصل شهاب الدين احمد بن علي الفاسي. وقد ورد علينا بالمدينة الشريفة، وحضر معنا درس الفقه والأصول. وأبدى فيه من فؤاده ومباحثه الجليلة ما يليق بعلمه وفضله على طريقة أهل الفنون والمباحث فرأيته في ذلك كله، أهلاً للتدريس والفتوى، والحكم، وإفادة الطالبين على ما جبل عليه من حسن الفهم وحسن الإيراد وسعة البال في البحث والمراجعة فيه. فأوجب ذلك[1].

الخاتمة:

خلاصة ما سبق يمكن القول ان سلاطين الدولة العثمانية في عصرهم أولوا اهتماماً عظيماً بمدينة النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم ولم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا أقل شأناً ممن سبقهم في نشر وتشجيع العلم ، ولهذا كان لانتقال الخلافة الاسلامية من المماليك إلى العثمانيين خدمة للمدينة المنورة حيث بدء التنافس الجميل بين حكام وأمراء ورجال ونساء في التعبير عن عشقهم لهذه المدينة الظاهرة.

وتمثل الاهتمام العلمي في المدينة المنورة خلال العصر العثماني مشهداً من المشاهد الحضارية التي تستحق التوقف والعناية.

ومن مميزات التعليم في الفترة العثمانية عدم اقتصاره على قراءة القرآن وتفسيره وما يستخرج منه من المواعظ والقصص بل أنها كانت الجذوة التي أذكت جذوة المعرفة في نفوس العرب إذ دفعهم

(١) تقي الدين الفاسي- العقد الثمين- ج١- ص٢١٠.

دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها أخذ العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة، وقد مضوا يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة وأسهم العرب في بناء صرح علمي حي[١].

وحفلت المدينة المنورة بحركة علمية تمثلت بوجود حلقات المسجد النبوي الشريف والمدارس والكتاتيب والزوايا إلى جانب انتشار المكتبات المتنوعة والمتعدد وساهم المجاورون في نشر العلوم ونالت المدينة المنورة مساحة من الوقت من مجاورتهم التي تطور وقد تقصر.

بكل ذلك أصبحت الحياة العلمية في المدينة المنورة نشطة وتسابق سلاطين بني عثمان في انشاء المدارس بل نافسهم الأمراء والمقتدرون من العلماء وغيرهم في انشاءها فتعددت وزادت العناية بها ومعظم هذه المدارس يتم الانفاق عليها من عائدات الأوقاف وتم ربطها جميعها بالصرة العثمانية للصرف على رواتب المدرسين والطلاب وبقية العاملين بها واضفى وجود المسجد النبوي بظلاله على الحياة العلمية فنشطت دور العلم وعلت همة طلبته وغدت محطة أنظار العلماء من كافة الأقطار الإسلامية طلباً للعلم الشرعي وحباً في المجاورة.

(١) بيومي محمد على – دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز ابان العصر العثماني – دار القاهرة – مصر – ٢٠٠٦م– ص٢٨.

Features Of Education in Madina in Saudi Arabic The city of Othman Periad

Aaid bin Muhmeed Alzhrani

Abstract

Medina witnessed the legislation and the revelation of the Prophet (peace be upon him). Thus, it took the scientific status, which is not contested by other city. It ran the educational movement towards progress and prosperity and promotes the religious sciences, literature and the dissemination of science and knowledge among members of the community who were behaviorally and culturally promoted.

Medina has retained this position throughout history, although life has seen a marked deterioration during the Ottoman Empire. Medina had been the destination of scientists for its place in the hearts of those scientists, and that progress did not depend on the state as it relied on the public. This study presents the scientific aspect in Medina during the Ottoman era and the interest of the Ottoman sultans in Medina. It mainly focuses on the development that took place in the field of education and how it was spread over the area. The study also reflected the interest of Medina princes and the in learning sciences. They did not distinguish between cultural and scientific prosperity and between doctrinal output and moral or intellectual output. Thus, Medina became the center of sciences and students and scholars come it from all over Arab countries .